نبذة

في

اخبار

زينب (الزباء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رنڤال اليسوعي

obeikandl.com

obeikandl.com

نُبذة
في
اخبار
زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

١

قد وردت في مجلّة الرسائل الكاثوليكية (سنة ١٨٩٤ في ٧ ايلول) طرفة مستملحة للاب جوليان اليسوعي في بعض اخربة جبل لبنان. افتتحها المؤلف الشهير بقوله ان اهل سورية يطلقون اسم جسر زينب على القناة الرومانية التي بقي منها الى اليوم بقايا ضخمة في وادي نهر بيروت. ثم قال «ومن غرائب عادات السوريين انهم اذا فاتهم اصل اثر قديم من المآثر العادية نسبوه الى زينب. اما اذا كان الاثر من الابنية الدينية كالكنائس وغيرها فعزوه الى القديسة هيلانة امّ الملك قسطنطين الكبير.» والحقُّ يقال ان هاتين الملكتين قد احرزتا لهما صيتًا في بلاد المشرق لاسيّما سلطانة تدمر التي نحن بصدد ترجمتها. فذكرها طائر في الآفاق. غير ان اخبارها المتداولة بين العامّة ليست الّا اقاصيص من حديث خرافة لا تكاد تطابق ما ينبئنا عليها التاريخ الصحيح

وقد اعتنى بجمع تلك الحكايات كوسين دي پرسڤال في كتاب تاريخ عرب الجاهلية(١ فذكر فيه كل ما اورده مؤرخو العرب في شأن ملكة تدمر واختلقوهُ في سيرتها من ضروب الخرافات وانواع الترّهات. وخلاصة قولهم انهُ كان في ايّام جذيمة الابرش بن مالك اللخمي (واصلهُ من الازد وهو اول من استجمع لهُ الملك بارض العراق من بني نصر) رجل يقال

(١ Caussin de Perceval : *Hist. des Arabes avant l'Islamisme*, II, p. 24 et 190.

له عمرو بن ظرب (ويروى : طرب) وهو من نسل أذينة بن سميدع من عاملة العماليق . وكان ملكاً على الجزيرة واعمال الفرات ومشارف الشام . وجرى بينهُ وبين جذيمة حروب فانتصر جذيمة عليهِ وقتلهُ وشتّت شمل قومه وانفلوا . لكنهم لم يلبثوا ان يحشدوا جموعهم ويأكلوا عليهم الزبّاء ابنة عمرو . والزباء على ما يروى لقب تلقّبت بهِ لطول شعرها (١ . اما اسمها فقد اختلف في اصلهِ كتبة العرب . فمنهم من قال انهـا سمّيت فارعة (او فارغة) ومنهم من ادّعى ان اسمهـا نيلة او نائلة او نائلى (٢ . وذهب بعضهم الى انها تدعى ليلى . وقال آخرون بل كان اسمها ميسون . واذا استنبأتَ الادباء على اصلها ومسقط رأسها قال البعض انها كانت من بلاد الرومان لكنها تعرف العربية . واخبر الميداني في مجمع الامثال انها ولدت في باجرمي . وزعم القزويني وابن قُتيبة انها ابنة ملك العراق وانها تزوجت الملك الذي قتلهُ جذيمة . اما الرأي الاعمّ فهو ان الزباء كانت من نسل اذينة وابوها عمرو كما قيل

وعلى كل حال فقد اجمعوا القول انهُ لم يُرَ في نساء عصرها اجمل منها ولا اقوى حزماً ولا اكمل عقلاً . قال ابن نباتة انها اعتزلت الرجال فكانت عذراء بتول (٣ وكانت تحبّ الوقائع والحروب وتقود الجيوش كالقـائد الشجاع . فلما اجتمع لها امرها واستقرّ لها الملك بذلت كنوزها فجمعت الجموع وقد عزمت على الاخذ بثأر ابيها . الّا انها خافت ان ينتصر عليها الاعداء فلجأت الى الحيلة ونصبت لجذيمة المكايد الى ان دعتهُ الى قصرها . وكان بين اصحاب جذيمة رجل يقال لهُ قصير بن سعد من بني لخم فشاورهُ في الامر فحذّرهُ قصير وردّه عنها . فلم يذعن جذيمة لنصيحتهِ واتى الزباء فقبضت عليهِ وامرت برواهشهِ فقُطعت فهلك

وكانت الزباء قد بنت على الفرات حصنين متقابلين وجمعت بينهما بقناة تمرّ تحت النهر

---

١) قال ابن الكلبيّ : كان لها شعر اذا مشت سحبتهُ وراءها واذا نشرتهُ جلّلها فسميت الزبّاء والازبّ الكثير الشعر (عن ابن نباتة طبعة بولاق ص ٤٣)

٢) يعلم اصحاب التواريخ القديمة ان هذا الاسم كان اسماً لاحدى الالاهات التي يعبدها عرب الجاهلية في الكعبة . (راجع Lenormant: *Lettres assyriologiques*, Tome II, 1872.

٣) الزباء هي الملكة التي يضرب بها المثل في العزّ فيقال اعزّ من الزباء . . . . . واسمها ليلى تملّكت بعد ابيها لعـدم الولد واحسنت السياسة . . . . . وكانت تبغض الرجال . . . . . (راجع شروح مقامات الحريري للرازي وغيره)

ويزعم العرب انها جعلت اختًا لها يدعونها زينب في احد منفذي القناة واتخذت لنفسها المنفذ الآخر. وكانت تسكن في حصنها اكثر زمنها. فاذا جاء الصيف رحلت الى تدمر

وكان عمرو بن عدي خلف جذيمة خاله وقد صمم على قتل الزباء. غير انهُ خاف من سطوتها فاستدعى قصيرا وقال لهُ: « كيف لي بها وهي امنع من عُقاب الجوّ » (فذهب قولهُ مثلًا). قال قصير: أَعِنّي وخَلاك ذمّ (فصار مثلًا). ثم جدع انفهُ وأُذنيه (١ وضرب ظهره فقدم الزباء وشفّقها على حاله فقال: ان عمر بن عدي فعل بي ما ترين. فشفقت عليهِ وأنست بهِ حتى اطلعتهُ على سرّها واظهرت لهُ القناة والمنفذين. فلما عرف ذلك رجع سرًّا الى عمرو فاعلمهُ الامر وحرّضهُ على البطش بالزباء. فركب عمرو في الني دارع على الف بعير في الجوالق حتى اذا صاروا الى الزباء تقدّم قصير يسبق الابل ودخل على الملكة وقد كانت امنتهُ ولم تتّهمهُ. فادخلت العير في قصرها. فاذا بالرجال خرجوا من الغرائر فثاروا باهل المدينــة واعملوا فيهم السيف. فهربت الزباء ودخلت القناة. فلما وصلت الى المنفذ الثاني استقبلها عمرو بسيفه فقالت: بيدي لا بيد ابن عدي (فأرسلتهُ مثــلًا). ومصّت خاتمها وابتلعت سمًّا كان فيهِ فوقعت على الارض ساهنةً فضربها عمرو وقتلها

تلك هي ايها القارئ اللبيب قصّة الزباء واختها زينب اختصرتها على غاية الامكان(٢ من تأليف العرب ولكن اين هذه الروايات من الاخبار التاريخية الصحيحة التي تخبرنا بشهرة ملكة تدمر وعظمة تدبيرها وفتوحاتها وحروبها مع الملوك الرومانيين وكسرتها الاخيرة ونَفْيها من صحاري وطنها الى رومة ومقامها في مصيف تِيبور وموتها فيهِ الى غير ذلك من تفاصيل حياتها واكثرها اليوم راهن مستفيض

ولقد كنّا نظن ان كرور الايام لم يكن ليزيد شيئًا في تلك القصص الملفقة. الّا اننا وقفنا يومًا في مجلة المشرق (عدد ٢ ص ٨٣) على قصة اخرى. وهي ان السوريين لم يكتفوا بنسبتهم الى زينب القناة القديمة المذكورة آنفًا بل اضافوا الى ذلك حكاية اخرى فقال قوم

---

١) ومن ذلك المثل: لامر ما جدع قصيرٌ انفه

٢) ومن رغب في مطالعة تفصيل هذه الرواية عليهِ بكتاب الاغاني (راجع كتاب رنّات المثالث والمثاني في روايات الاغاني للاب صالحاني الجزء ٢ ص ٥٤). وقد استخرج العرب من قصّة الزباء عدة امثال لم نذكر الّا البعض منها خوف الاطالة

منهم ان زُبَيدة زوجة هرون الرشيد هي التي شيَّدتها لاستجلاب مياه نهر بيروت العذبة فاستغربتُ الامر استغرابًا كليًا وفكَّرتُ في نفسي : « اجل ان اهالي سورية يعرفون اخبار ذلك الخليفة المشهور وزوجته المحبوبة لورود ذكرهما مرارًا في كتاب الف ليلة وليلة . على ان نسبة القناة الى زبيدة امر غريب للغاية لان هذا البناء مع استحكام صُنعه كان قد مسَّتهُ يد الدهر على عهد الرشيد فثلَّ قسم كبير منهُ ولم يعُد يجدي نفعًا لاستجلاب المياه . . . ولعلَّ تلك القصَّة من القصص التي ابتكرها الاهلون لقوَّة الخيال عندهم . . . »

فلم ازد التفتيش عن الامر الَّا زاد استغرابي لهُ وبُعْدي عن معرفة علَّتهِ . الى ان اطلعني مدير مجلَّة المشرق على رسالةٍ لحضرة الاب انستاس ماري دي سنت ايلي الكرملي قد سألهُ فيها عن شأن الزباء وابدى لهُ الرجاء ان يبين لقرَّائه الكرام الغث من السمين في ترجمة تلك الملكة الشهيرة . فعرض عليَّ حضرة المدير ان اكلِّف نفسي بالجواب . فلبَّيتُ الى دعوتهِ وقد اخذتني الرغبة الشديدة في الوقوف على العلاقة التي بين القصتين الموما اليهما وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه ان شاء الله

٢

قد قدَّمنا ان صيت سلطانة تدمر ممتدٌ الى الخافقين (١ قال الماركيز دي ڤوكويه (de Vogüé) « لقد فتن ذكر تدمر في كل آونةٍ قلوب الناس . » فكانَ ارضها مورد تسابق اليهِ اصحاب الفنون والمؤرخون والمهندسون والسيَّاح والعلماء ومن كُلِّف بالمسكوكات والآثار القديمة . ولكلٍّ منهم بحث خاصٌ يُحيي بهِ ذكر ما اكتسبت تلك المدينة من المجد والقوة في وقتٍ يسيرٍ ويُشعر بهبوطها عن منزلتها الفائقة وذلك ما جعلها عبرةً لامم العالم . ولكن مع كل ما بذل علماء القرون السالفة من السعي والجهد في ايضاح تاريخ تدمر وتصحيحهِ فانهم لم يظفروا من المرغوب الَّا بالقليل النزر . امَّا عصرنا هذا فقد ظهر فيهِ منذ خمسين سنة عدَّة مستشرقين واصحاب عاديات يتقدمهم العلامتان دي ڤوكويه

١) يعلم قراؤنا الكرام ان تاريخ زينب قد اختاره الاوربيُّون لا سيما الفرنسيُّون موضوعًا للتمثيل والروايات المختلفة . غير ان ذكر هذه التصانيف يزح عن بال الادباء اللهمَّ الَّا ذكر رواية قدمها الاب دوبينياك (abbé d'Aubignac) الى الشاعر كورنيل العظيم . ولا يجهل ايضًا القراء ان لابرويار (La Bruyère) الكاتب الشهير قد خصَّص لوصف زينب ومجدها وانكسارها مقالة حسنة يعتبرها ذوو الذوق السليم من ابلغ مقالات عصره

وواد نكتون (Waddington) . وهما اللذان افتتحا الدروس التدمرية واتحفا العلم بما اكتشفا من الآثار العديدة في حاضرة مملكة زينب وقرأا من الخطوط المحفورة على مقابرها واعمدة هياكلها وقواعد دُماها . ثم تبعهما الاسياد مورتمان (Mordtmann) ودسو (Dessau) وأوتنك (Euting) ولينورمان (Lenormant) وساخو (Sachau) ودي سوسي (de Saulcy) وكلرمون غانو (Clermont-Ganneau) وشرودر (Schröder) وغيرهم ممن يطول بنا ايراد اسمائهم . فلم تمرّ سنة الّا اتسع نطاق تاريخ تدمر فازداد بيانًا ويقينًا باكتشافات جديدة

ولعلّ سائلًا يقول : فماذا تنبئنا التواريخ والرسوم القديمة من امر زينب وما هو نسبها وما هي الانحاء التي تولت تلك المملكة تدبيرها والبلاد التي باشرت فتحها . ولاي سبب كُسفت تلك الشمس البهية فحجب نورَها الساطع بعض ملوك رومة المظفرين

أجيب ان ترجمة زينب على ما مرّ لا يمكن اقتباسها من اخبار العرب وحدهم . وهنا يحسن بنا ذكر ما قالهُ ابن خلدون في مقدمته : « ان الذين ذهبوا بفضل الشهرة والامامة المعتبرة في التاريخ هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل . » فهذا القول اصحّ في تاريخ زينب منهُ في بقية الاخبار . وهذا ابن خلدون الذي نطق بذلك المقال قد نقل في شأن الزّباء كل ما سبق اليهِ مؤرخو العرب كما رواهُ ايضًا قبلَهُ الطبريّ وهو من جملة المبرزين المعدودين في الانامل الخمس (١)

فان كان المؤرخون الشرقيون لا يُرجع الى قولهم في اخبار زينب فاي منهل يا تُرى يجب ان نرده . اقول : اوّلًا ان الكتبة الذين يجب الاستناد اليهم هم المؤلفون القدماء من الرومان واليونان . نخص منهم بالذكر ڤوپيسكوس (Vopiscus) وتربيليوس پوليو (Trebellius Pollio) ولهما تاريخ في القياصرة . ثم زوزيموس (Zozime) الكاتب اليوناني الذي وضع كتابًا محكم الاجزاء اودعهُ تفاصيل اخبار زينب . وقد جاءت الاكتشافات الحديثة مؤيدةً لمعظم ما اثبتهُ في صددها . ثم المؤرخ زوناراس

---

(١) راجع Nöldeke : *Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassa-niden.*, 1879, p. XVII. وقد لاحظ المؤلف مثل هذا المعنى في كتابهِ *Über die Amalekiter*, p. 34.

(Zonaras) وغيرهم ممن سنأتي بذكرهم في معرض كلامنا . وعلى هؤلاء المؤرخين قد اعتمد كلُّ من كتب قبل زماننا عن ملكة تدمر (١

ثانيًا ومن المصادر الثابتة التي تؤثر على ما سواها من هذا القبيل الكتابات المكتشفة منذ خمسين سنة كما تقدَّم (٢ . وكان اول من سبق الى نسخها العلاَّمة دي ڤوكويه في مجموع الكتابات السامية (٣

هذا وانَّ التصانيف التي أتت بوصف تدمر واحوالها وذكر أمرائهـا لا يحيط بها احصاء ولا يكاد يخلو كاتب ممَّن بحثوا عن تاريخ القيـاصرة والرومان الَّا وتعرَّض للكلام عن زينب وعاصمتها فمنهم من اسهب ومنهم من اقتصر وربَّما ذكروا امرًا خاصًّا من امور المدينة كبناياتها وتجارتها : بيد انَّ الكتب الجامعة المشتملة على تفاصيل اخبار البلدة مفردةً قليلةٌ جدًّا . ومنها ما لم نتمكَّن من الحصول عليه ففاتنا لذلك فوائدهُ (٤

ولا بأس من ذلك فانَّ الاب مرتين اليسوعي الطيِّب الذكر قد اغنانا عن مطالعة كثير من التآليف بما اودعهُ لنا من اخبار زينب في تاريخ لبنان الذي عُرِّب منهُ قسمٌ ملخَّصًا بقلم المعلِّم رشيد افندي الشرتوني . فانَّ المؤلف رحمهُ الله كتب في ملكة تدمر نبذة حسنة دوَّن فيها ما امكنهُ من الفوائد المستخلصة من الكتابات التدمريَّة . ومن ثمَّ فلم يبق لنا الَّا ان نقتفي آثارهُ وننظِّم ما اتى بهِ من التفاصيل الخطيرة مع إضافة بعض تعليقات وافادات عن جُلِّ ما اكتُشف منذ وفاتهِ الى يومنا هذا (٥ . ولم نألُ جهدا كي تكون هذه المقالة

---

١) ومن جملتهم جمعيَّة من علماء الانكليز الذين وضعوا تاريخًا عامًّا حسنًا يشتمل على عدَّة مجلدات ضخمة طُبع سنة ١٧٤٠

٢) راجع ما قالهُ في خطارة هذه الكتابات العلاَّمة نولديك في المجلَّة الشرقية الالمانية (Z. D. M. G. 1885, p. 338)

٣) عنوان الكتاب Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, 1868 اشرتُ اليهِ باوَّل حرف اسم مؤلفهِ (V) وكذلك ساشير بحرف (W) الى تأليف السيِّد وادنكتون في الكتابات اليونانيَّة واللاتينيَّة في بلاد الشام (Inscriptions grecques et latines de la Syrie, 1870) واماَّ المجلَّة الاسيويَّة الفرنسويَّة Journal Asiatique, فالدلالة عليها بحرفي J. A.

٤) وكنَّا نودّ لو اطَّلعنا على تأليف حسن في هذه المادة استشهد بهِ الكتَّاب . وهو بالالمانيَّة
Sallet : *Die Fürsten von Palmyre*, 1866.

٥) ونشكر الابوين هنري لامنس ولويس شيخو لعدَّة إفادات تكرَّما علينا بها لتحسين شغلنا

مطابقةً لأُصول التاريخ الصحيح ولذلك اشرنا في ذيل الصفحات الى التآليف التي اخذنا عنها في اثناء كلامنا

ومع ما في هذه النبذة من القصور فأملنا وطيد انها ستكون كافيةً لان تُطلع قرّاءنا على اهمّ اخبار تلك الملكة التي اذعنت مدّةً بلادُنا لسلطانهـا فرُزقت بحُسن تدبيرها خيراتٍ عميمة

وما لا يسعنا السكوت عنهُ في هذا المقام هو رغبتنا الشديدة في ان يُقبـل ادباء الشرق على تلك الدروس التاريخية التي سبقهم اليها علماء الفرنج فصرفوا بسخاء في مزاولتها ما لديهم من الوسائل الادبية والماديّة فيجري وطنيُونا على مثالهم لئلاّ يقال ان الغريب ادرى بما في البيت من اهلهِ (١

٣

ان اسم صاحبة ترجمتنا في اللغة الآرامية בתזבי (بَتْ زبّاي) معناه فيهـا ابنة زبّاي وعلى هذه الصورة ورد في الكتابات التدمريّة . وقد اضافت اليهِ اسمًا آخر رومانيًا جريًا على عادة الشرقيين الذين كانوا في عصرها تحت حكم الدولة الرومانية فتسمّت بسِپتيميا (Septimia) . واكثر دلالة مثـلِ هذه الالقاب على عائلة المتكنّي بها (٢ . اما اسم زينب (Zénobie) فهو صورة اسم يوناني قد اعتاد الشرقيون في تدمر وانحاء سوريّة ان يزيدوهُ على اسمائهم الساميّة

ويظهر من كتابات تدمر ان زينب كانت كريمة النسب تنتمي الى اشرف عيال المدينة على انّ ذلك لم يكن ليرضيها . فحاولت بما امكنها من الوسائل ان تخفي اصلها . وذلك امرٌ شائع بين ملوك المشرق اذا خجل نسبهم ان يدّعوا لهم اصلًا يرتقون بهِ الى من تقدّمهم من الملوك

---

١) راجع المشرق ص ٣ . راجع ايضًا (في العدد ٦) مقالة مفيدة للاب لامنس عنوانها « هبًا على درس تاريخنا » اودعها صاحبها نصائح جديرة بالاعتبار نودّ لو تخرج الى حيّز الفعل

٢) والرومان يدعون هذا الاسم الزائد gentilicium

قال المسيو دي ڤوگويه (١ : انّي اعدُّ سكوت المؤرخين عن صحّة نسب زينب ضربًا من التملّق . ولمّا رأى شعبها ما بلغت اليهِ من السطوة وعلوّ القدر والخبرة العجيبة في آداب الحرب احبُّوا ان يتوهّموا ان دانت لها البلاد اصلًا شريفًا عزوها اليهِ في حياتها اه . وجاء في تاريخ تريبيليوس پوليو ان زينب كانت تنتسب الى تلك الملكات اللواتي اشتهرنَ في تواريخ المشرق كسميراميس ملكة اشور وديدون صاحبة قرطاجنّـة وكلاوپترة ملكة مصر . وكانت تدّعي بنوع اخصّ انّ هذه الاخيرة من اجدادها وانها هي حفيدتهـا . وقد اشعر اتّخاذها لاسم زينب بشدّة حرصها على السيادة وبما خصّت بهِ من الصفات الملكية ومعناهُ في اليونانية قوّة المشتري (Ζηνοβία من Ζηνός و βία (٢

ولمّا مات سپتيميوس أذينة الثـاني ملك تدمر ضبطت زوجتهُ زينب عنان الرئاسة

---

١) V., p. 33

٢) ولعلّ سائلًا يسأل عمّا في دعوة زينب بانتسابها الى كلاوپترة من الصحّة . فنقول انّهُ لمقرَّر انّهُ وُجد بين تدمر ومصر علائق تشهد عليها الآثار القديمـة . فكان كثيرٌ من المصريين حلُّوا مدينة تدمر وادخلوا فيها بعضًا من عوائدهم لاسيَّما فيما يختصُّ بدفن الموتى والمآتم . واخبر بعض المسافرين انهم وجدوا في تدمر جثثًا محنَّطة على طريقة المصريين (J. A., Sept. 1897, p. 350) وذكر الرحّالة پوجولا (Poujoulat : *Voyage en Asie Mineure* II, 148) انهُ وقف على عدة نواويس فسأل عنها بعض العرب فاجابوهُ انّهُ كانت فيها جثث من الموميا الّا انّ اهل الوبر قد استخرجوها ظنًّا منهم انها تحتوي نفائس من الذهب والفضّة (راجع ايضًا كتاب برتون الانكليزي Burton : *Unexplored Syria* وكتاب المسيو برنوڤيـل : Bernoville : *Dix jours en Palmyrène*, p. 119 و Wright : *Palmyra and Zenobia* 1895, p. 127.) لكنّ ذلك ليس بكافٍ لنسب زينب اصلًا مصريًّا والارجح عندنا انها كانت عربيّة الاصل . وانتحلت نسب كلاوپترة لشدّة طمعهـا في الملك . واقوى دليل على ذلك صورة اسمها السابق الذكر . لانّ لفظة زبّاي نفس الاسم الذي دُعي بهِ احد قواد تدمر في عهد أذينة وزينب . وهو من آل أذينة اي من بني السميدع . فمن المتبادر عند الوقوف على الكتابات التدمريّة انّ بين ابي زينب وذلك القائد قرابةً ما . وان صحّ هذا القول فقد اصاب مؤرخو العرب الذين نسبوا الزباء الى بني السميدع فضلًا عن انّهم حفظوا صورة اسمها الاصليّـة . واماّ قول الذين يزعمون ان ام زينب كانت مصرية فلا يخلو من بعض الصحّة لكثرة العلائق السياسيّة والتجارية التي كانت تربط بين ملكة تدمر واعيان بلاد مصر . وسيأتي الكلام على كلّ ذلك في محلّهِ . (راجع رَيت في الكتاب المذكور ص ١٣١)

obeikandl.com

واخذت تدبر شؤون الرعية بالنيابة عن ابنها البكر وَهْبلات וַהְבַלַּת (ومعناهُ بالآرامية هبة الإلاهة. فما كاد ينتشر هذا الخبر في الاقاليم التي دبَّرها اذينة قبل وفاته حتَّى تلقَّتهُ الرعايا بزيد المسرَّة وكانت هذه الاقاليم ستة السوريات الثلاث (الاولى والثانية والثالثة) والجزيرة وقيليقية وقسم من آسية الصغرى. ومن اعجب الامور انَّ قبل عهد زينب بقليل قامت في الغرب امرأة اخرى تدعى ڤيكتورية استولت على الامر في بلاد غالّيَة لما رأت في ملوك رومة من الضعف والفشل فلم يقووا على حفظها. ولذلك قال المؤرخون انَّ رجال ذلك العصر تأنَّثوا واستفحلت النساء حتَّى نلنَ السيادة على الشعوب

٤

ان من استقرى اخبار زينب يقضي من امرها العجب لما ابقت ملكة تدمر في تاريخ العالم من المآثر الجليلة ويدهش لسرعة بلوغها الى اوج السلطة والمجد. بيد انَّ ترجمة حياتها تستلزم توطئةً تُفصح عن احوال تدمر منذ ابتداء امرها ليستدلَّ القارئ على الاسباب التي نهضت بهذه المدينة الى مدارج الفلاح واوسعت نطاق تجارتها وبلّغتها الى مقام رفيع لمَّا اتخذتها زينب كعاصمة ملكها

لا يُخفى انَّ لتدمُر اسماً آخر في اللغات الاجنبية وهو پَلْميرة (Palmyra او Palmira) (١. وقد ترجَّح الرأي عند العلماء انَّ سليمان الحكيم هو مشيِّد هذه المدينة مع ما فيها من ابنية الجبابرة. والدليل على ذلك اوَّلاً شهادة الكتاب المقدَّس في سفر اخبار

---

١) وقد زعم قوم انَّ معناها باليونانية مدينة النخل. وقال آخرون ان اسمها العبراني תַּדְמֹר صورة اخرى للفظة תָּמָר (تَمَر) باقحام الدال فيها ومعنى تَمَر النخل. امَّا المتنبي فقد اشتقَّ اسمها من الدمار حيث قال يمدح سيف الدولة وكان اوقع بقبائل العرب عند تدمر :

وليس بغير تَدْمُرَ مستغاثٌ وتدمرُ كاسمها لهمُ دمارُ

الَّا انَّ هذا اشتقاقٌ بديعيّ ذكرهُ المتنبي على طريقة الجناس ليس الَّا. وقد ادَّعى بعضهم ان تدمر هي عين لفظة ܬܕܡܘܪ السريانية التي مرادها الشيء العجيب والمعجزة . فعلى ذلك قد بنى السيد رئيت السابق الذكر خرافةً أُخرى فقال ان معنى تدمر لا بد من ان يكون الدمار العجيب

الايام الثاني (٨ : ٣,٤) حيث جاء قولهُ تعالى عزَّ وجلَّ انَّ « سليمان مضى الى حماة صوبة وتغلَّب عليها و بنى تدمر في البرّية وجميع مدن الخزن التي بناها في حماة » ووافقهُ ما جاء في سفر الملوك الثالث (٩ : ١٨) اذ قال الكتاب عن سليمان : « فبنى سليمان جازر . . . وتدمر في ارض البرّية » . (والدليل الثاني) على انَّ تدمر من اعمال سليمان تقليد اليهود تناقلوهُ ابًا عن جدّ واثبتهُ يوسيفوس المؤرّخ في كتاب العاديّات اليهودية (٨ : ٦) فنسب بناء تدمر لسليمان . وفي شهادة يوسيفوس من القوّة ما لا يجحدهُ جاحد مع ما كان عليهِ من الخبرة بتواريخ اليهود القديمة . (والدليل الثالث) اتّفاق العرب لاسيّما سكّان البادية على ذلك وهم يزعمون انَّ الجنَّ هي التي بنت تدمر لسليمان وعلى ذلك قول النابغة الذبياني من شعراء الجاهلية :

الَا سليمان اذ قال الالهُ لهُ قُم في البريّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ
وخيّر الجنَّ أني قد أمرتهمُ يبنونَ تدمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

فناهيك بهذه البراهين الثلاثة من شواهد تكفي لإقناع من لا يرضى بالحاجّة والخصام وتُبطل حُجج بعض المستحدثين الذين انكروا ذلك (١ . الَّا انَّ في مزاعمهم ضروبًا من التبايُن والشطَط ينقضها متْن الكتاب الكريم (٢ وفي قرينة الآية المذكورة آنفًا ما يزيل كلَّ التباس وشبهة اذ جاء اسم تدمر مقرونًا بذكر حماة (חמת) . ولا يخفى ان دولة سليمان كانت تمتدُّ الى اقاصي سورية الشمالية حتَّى مدينة تِفسَاح الواقعة على ضفَّة الفُرات . فلو لم يقصد الكتاب العزيز الاشارة الى مدينة تدمر التي نحن بصددها لما اورد اسمها في جملة المدن التي عيّنها كحدود مملكة سليمان شمالًا . لاسيّما انَّ موقع تدمر انسب محلّ امكن سليمان اختيارهُ لبناء مدينةٍ تكون لهُ بمثابة مربط لتجارة رعاياهُ او كما يقول الكتاب كاحدى « مُدن الخزن » . وزد على ذلك انَّ الخطوط التدمريَّة المكتشفة حديثًا أتت مؤيّدةً لذلك

---

١) راجع Hitzig : Z. D. M. G. VIII, p. 222 – راجع ايضًا كتاب التاريخ القديم للسيد ماسپرو (Maspero) في طبعتهِ الرابعة وغيرهم ممَّن لا فائدة في ذكر اسمائهم لمشابهة اقوالهم بعضها لبعض

٢) ومن غريب ما قيل في تدمر المذكورة في الاسفار المقدَّسة انها مدينة من اعمال ارمينية او الكوكاس Haneberg : *Geschichte der biblische Offenbarung*, p. 250.

فان اسم هذه المدينة قد ورد فيها غالباً على نفس الصورة المذكورة في التوراة وخصوصاً في الكتابة التجارية التي سنتكلم عنها (١

قال السيد برنوفيل (٢ : « انّ مدينة تدمر المذكورة لاوّل مرّة في الكتاب المقدّس لا تكاد ترى لها ذكرًا مدّة الف سنة الى ان كشف عن وجودها القناعَ پلينيوسَ الطبيعي (٢٣—٧٩ب م) فوصفها وصفًا شائقًا يدلُّ على ما نالتهُ من النجاح والتقدُّم في توالي الدهور. ونعتها بحسن موقعها كمركز اثير الخطارة بين مملكتي الرومان والفرس ». والحقّ يقال ان بعد وفاة سليمان الحكيم أصبح ذكر تدمر نسيًا منسيًا الى عهد قياصرة الرومان. فانّ ابا التاريخ القديم هيرودوت ضرب عن ذكرها صفحًا وكذلك لا تجد لاسم تدمر اثرًا في اخبار فتوحات الاسكندر وپومپيوس وطرايان كما فات سطرابون الجغرافيّ تعريف احوالها مع حسن معرفتهِ بالانحاء الشرقية

وجلُّ ما انبأتنا بهِ الاكتشافات الحديثة انّ نبوكد نصّر الثاني اجتاز بتدمر في اواخر القرن السادس قبل المسيح عند مسيرهِ الى محاربة فلسطين ومصر ففتحها عنوةً. وذهب قومٌ الى انّهُ هدم سورها وخرب ابنيتها. وذلك امرٌ فيهِ نظرٌ لانّ الآثار القديمة التي يزورها سيّاح عصرنا تبيّن صريحًا انّ ذلك الغازي الشهير لم يستأصل ابنيتها جمعاء. امّا ذو القرنين فلم يتعرّض لتدمر ولمّا قصد العراق عَبَرَ الفرات عند مدينة تفساح المارّ ذكرها

ولا عجب من خمول ذكر تدمر في التاريخ القديم لانّها لم تزل الى اوائل النصرانية مدينة تجاريّة محضة. الى ان اتاح لها اللهُ حياةً سياسيّة جعلتها من امّهات المدن وذلك ما يحدو بسيّاح عصرنا ان يشدّوا اليها الرحال ويحطّوا عندها عصا الترحال

٥

قد برّز الشرقيّون في كلّ آنٍ بحذاقتهم في ضروب المتاجرات وانما نال بينهم قصبة السبق آلُ فينيقية فانّ تاريخ تجارتهم يرتقي الى ما فوق القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وقد مرّ في بعض اعداد المشرق (ص ٢١٩) ما يُعرب عن اتّساع نطاق تجارتهم البحريّة. فذلّلوا

---

١) اطلب مقالة حسنة كتبها في تدمر الدكتور سميث Smith : *A Dictionary of the Bible* (Tadmor)

٢) راجع كتابهُ عن تدمر (ص ٢ و ٣)

تيّار المياه وخاضوا معامع التجار حتى فازوا على اقرانهم بالسهم المُعلّى . ولم يكن نفوذهم التجاريّ برًا اقلّ شأنًا وخطارةً فانّهم فضلًا عمّا كان العرب يأتونهم بهِ من بلادهم كانوا يتردّدون الى انحاء مصر والفرات لنقل بضائعهم واستجلاب خيرات تلك الاصقاع الى اوطانهم . بيد انّ قوافلهم كانت تعدل عن طريق البراريّ فلا تقطع المفازات الواقعة بين سوريّة والعراق خوفًا من غزوات قبائل البادية . وذلك ما حمل سليمان على ان يطلب لتجارتهِ مع العراق طريقًا اقصر فلم يجد مدينة افضل موقعًا من تفساح . ولمّا لم يرَ بُدًّا من اتخاذ مركزٍ تحلّهُ التجار قبل البلوغ اليها صمّم النيّة على بناء تدمر لتكون كمحطّة لعِيراتهِ ومخزنٍ حصين في وجهِ اهل الوبر لخيرات بلاد العراق

فاصاب سليمان المرمى وجاءت تدمر محقّقةً لآمالهِ وهي المدينة الحريزة البنيان الحَسَنة الاتقان تراها في وسط البراري كريفٍ مُخصب او واشٍ طيّب او زبرجد تحدق بهِ الرمال كقلادةٍ ذهبيّة (١ . فلم تلبث ان تضحي موردًا يتقاطر اليهِ ارباب التجارة . ولنا دليلٌ صادقٌ

---

١) وما كان يزيد في رفعة مقام تدمر غزارة مياهها في الزمن القديم . فكان لها ماء عَذَق ويجري فيها عدّة انهار نضب اليوم اكثرها فلم يبق منها سوى جدول او جدولين . واشتهرت بعيونها المعدنية يتوارد اليها اصحاب العاهات للاستحمام فيشفوا من اسقامهم ولذلك دعا الرومان تدمر وار باضها بسورية الشافيَة (Syria salutifera) . وقال بَطْليموس الفلكيّ الشهير الذي عاش في القرن الثاني للنصرانيّة انّهُ كان يسيل في وسط البلدة بقرب الهياكل نهر كبير بعرض البَرَدى ولم يزل السيّاح من العرب وغيرهم الى القرن الثاني عشر يصفون تدمر بعذوبة مياهها المتفجّرة وكثرة حياضها واسرابها وحدائقها (راجع Reclus : *Géogr.* IX, 792) ومقالة للدكتور ركندرف (Z D M G, 1888, p. 409) وقال الجنرال تشسني (Chesney : *Expedit. to the Euphrat*, 1850, t. I, p. 526) انّهُ شاهد في تدمر بقايا قناةٍ تمرُّ الآن بين المقابر وبما كانت تجري مياه عين اسمها أفقة كالعين المشهورة بهذا الاسم في لبنان . وكان لقب أفقة يطلق على العيون المختصّة باسم الزُّهرة (راجع V. n° 95) وقد لاحظ بعض السيّاح المحدثين في نواحي دمشق وبعلبك آثارًا اخرى لقنيّ وحياض كبيرة بقرب عين الفيجة وعين لبوءة وغيرهما ينسبها الاهلون الى زينب جريًا على عادتهم كما سبق (Sachau : *Reise in Syrien und Mesopot.*, p. 23, 55) وتاريخ الرومان لمُمسن (Mommsen V, 429) . وزاد قوم ان زينب قصدت من بناء تلك القنوات استجلاب المياه الى حاضرتها . وهذا زعم لا سند لهُ اذ قد اوضحنا ان مدينة تدمر كانت تستغني بما فيها من الانهار والاسراب الغزيرة عمّا سواها من المياه البعيدة الموقع . ولو صحّ قول الاهلين في نسبة تلك البقايا الى زينب فجُلُّ ما يجوز الاستنتاج منهُ هو ان سلطانة تدمر قد عزمت على ان تُعمّر البريّة بواسطة اجراء المياه على مفاوزها)

على ذلك ألا وهي كتابة قديمة بالنبطية وُجدت حديثاً في تَيماء شمالي جزيرة العرب(١ فجاء بها ذكر تدمر وهي تصفها كفندقٍ متَّسع الارجاء في برّيّة الشام. وتاريخ هذه الكتابة يرتفع الى القرن السادس قبل المسيح

ولمَّا صار امر البلاد الشرقية الى السلوقيين وظهر في دولتهم الفشل والانحطاط انتهزت قبائل النبيط الفرصة لتخلع عنها نير هؤلاء الملوك وسلّمت قيادتها الى من يسوسها من ابناء جلدتها. فكثرت الولايات المستقلّة في انحاء الرُّها وحَضَر (Atra) وخارك اي كرك او كرخ القديمة (Charax) وغيرها من بلاد الجزيرة والعراق(٢ . ولمَّا كانت كلُّ هذه الطوائف تحترف بمزاولة التجارة جعلت تسيّر قوافلها الى پترة (وادي موسى) وغزة وتدمر فاصبحت حاضرة زينب منذ ذلك العهد مدينةً خطيرة من عواصم آسيَّة الغربيَّة

ولم تزل تدمر على تلك الحال تنمي وتتقدَّم في سُبل العمران حتى صارت في اوائل النصرانيّة احدى المدينتين اللتين جمعتا معًا بين تجارة اوربَّة وآسية اعني مدينتَي پترة وتدمر (٣ . وكانت القوافل العظيمة التي تقطع البراري تعبر في احدى هاتين العاصمتين فتَنقل منهما البضائع الى رومة وتزيد في حاضرة الممالك اسباب التَرَف ورفه العيش (راجع خارتتنا لبيان المسالك التجاريَّة في تلك الازمنة في آخر هذه المقالة) فمن جزيرة العرب كانوا يستخرجون الذهب والجَزع واليشب واللُّبان والصَّمغ والصبر وعود الندّ. ويستجلبون من العراق لآلئ البحرين ومن وادي نهر السند وسواحل كورومندل انواع المنسوجات التي يُتاجر بها الى يومنا اهل تلك البلاد. ويستحضرون من اقاصي الهند القرنفل والبهار والحرير الصينيّ والنيل والضجاج والفولاذ والعاج والآبنوس. وكانت كلُّ هذه اصناف المتاجر تأتيهم على طريق البرّ . امَّا ما كان يردهم من الارفاق على طريق البحر فكان دون ذلك. ولا شكَّ انَّ الرومان صرفوا جهدهم في استمالة اهل تدمر بغيةً منهم ان يقاوموا نفوذ بني ارشك من العجم واستخدموا قوافلها لاعلاء

---

١) راجع Corpus Inscript. Semit., II p.107

٢) R. Duval : *Hist. d'Edesse*, J. A. 1891², p. 110

٣) راجع Reinaud : J. A. و Mémoires de l'Acad. des Inscript., t. 24, 1864 J. A. 1883², و *Syrie Centrale, Architecture*, p. 12. Introd. 1863¹, ودي فوكويه ولينورمان (التاريخ القديم)

امرهم في تلك الانحاء. ثمَّ ضمُّوا هذه المدينة ملكة الصحراء الى اقاليمهم الشرقية واقاموها منذ بدء النصرانية كرابط بين طرفَيْ العالم العتيق(١

وشرعت من ثمَّ مدينة تدمر ترتقي الى درجة سامية من التقدُّم والعمران. فامتلأت خزائنها باموال طائلة لم تَعهد بمثلها كثرةً اللهمَّ الَّا في زمن ملكتها زينب. يشهد على ذلك كتابة رسميَّة ذات لغتين (٢ قد اكتشفها الامير الروسي لازارف (Lazarew) فأتحف بها العلماء الاوربيين سنة ١٨٨٢. والكتابة المذكورة من الحطارة بمكان رفيع قد جدَّ في استخراج معانيها المفيدة اساتذة اللغات الشرقية وارباب التواريخ القديمة فبيَّنوا ان هذا الاثر المهمّ يرتقي الى سنة ١٣٧ للمسيح وانهُ اجلّ ممَّا سواهُ في ايضاح

---

١) من المعلوم ان الرومان احسنوا وجه استخدام الامم التي اخضعوا لهم رقابها. مثال ذلك انهم اقاموا بين دمشق وتدمر ٥٢ مركزًا عسكريًّا و بنوا عدَّة حصون على الطريقة الممتدة بين بصرى ودمشق (راجع Marquardt :*Römische Staatsverw.* I, p. 414 Duruy : *Histoire des Romains* VI, 80) اما الطريق التي تؤدي من تدمر الى نهر الفرات فلم يغفلوا عن تحصينها ايضًا (راجع Mommsen : *Römische Geschichte* V, p. 80 . وكل ذلك كما لا يخفى من اقوى الاسباب لتأييد التجارة وحاماتها بتلك البلاد التي تجول فيها قبائل متلصِّصة. فلا عجب اذن من ان حركة تجارة رومة كانت تبلغ وحدها الى ما يفوق ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك

٢) اللغتان المذكورتان هما التدمرية واليونانية وهما الغالبتان على الكتابات المكتشفة في عاصمة زينب. ومن المعلوم ان اليونانية كانت بمنزلة اللغة الرسمية في جميع الاقاليم الشرقيَّة المُذعنة لدولة الرومان. امَّا لسان اهل تدمر فهو لهجة آرامية على غاية الشبه بالسريانية. وقد زعم السيد ساخو ان لغة تدمر هي اللغة التي نطق بها المسيح لذكرهِ المجد مدَّة حياته على الارض . (راجع Z D M G, 1883, p. 564) ولكن لا يخلو هذا القول من بعض المبالغة. فان لهجة تدمر اشبه بلغة اهل الرُّها منها بلغة السيد المسيح وهي الفلسطينيَّة . راجع مقالة مستملحة للعلامة نولدك بهذا الصدد (Z D M G, 1870, p. 108)

اما الخط التدمري فلا نعرف حقَّ المعرفة على ايّ صورة كان في القرون السابقة للنصرانية لان جميع الكتابات والرسوم المكتشفة في تدمر الى هذه الغاية ينحصر تاريخها بين القرن الاول والقرن الرابع للمسيح ولا يرتفع اقدمها عهدًا الى ما فوق السنة التاسعة قبل النصرانية. بَيدَ انَّهُ من المقرَّر ان الامم الآرامية كافَّةً قد اقتبست منذ قديم العهد صورة حروفها من الفينيقيين فلم تزل كل واحدة منها تتصرَّف بها وتغيّر اشكالها شيئًا فشيئًا الى ان ظهر في تدمر الخط الذي وُجد منهُ آثار عديدة على بقايا ابنيتها واخربة هياكلها. والخط المذكور قريب الى الخط العبراني المربّع. فكانهُ رابطٌ بينهُ وبين الخط السطرنجيليّ المنتشر في الرها. (راجع جدولنا للخطوط القديمة وجه

صورة زينب من تمثال خزفي (على زعم برتون)

احوال التجارة القديمة اذ يُطلعنا ليس فقط على امور تدمر الخصوصية بل ايضاً على عدّة شؤون مختصّة بتدبير الرومان لاقاليمهم الشرقية

٦

ومما يتبيّن من تاريخ هذه الكتابة النفيسة هو انها خُطَّت في السنة الاخيرة من مُلك ادريانس اي السنة الثالثة بعد سفره الى تدمر. وبتلك الاثناء اتّخذت لها المدينة اسماً ثانياً اجلالاً لهذا القيصر فدُعيت بهِ Hadriana او Hadrianopolis (١

امّا مضمون الكتابة فهو تعريف ديواني (جمركي) مطوّل مسهَب اصدرهُ مجلس شيوخ تدمر حسماً لِفِتَن وقعت بين التجّار ومأموري الخزانة. وقد زادوا على ذلك بعض البنود لرسم توزيع المياه. وخلاصة ما يُذكر في هذا التعريف بيان ما يُضرب من المكوس على البضائع والمعاملات التجارية اجمالاً وافراداً. ويتّضح من اثنائها ان الحقوق الاميرية كانت بالغة. فان كلّ حملة جملٍ او حمارٍ واردةً كانت ام صادرة تُضرب عليها اوّلاً ضريبةٌ ثابتة مبلغها ثلاثة دنانير رومانية (وكان الدينار الروماني يساوي وقتئذٍ نحواً من ٧٢ سنتيماً) ثم فريضة اخرى على اختلاف قيمة البضائع

وعديدة هي السِلَع الوارد ذكرها في التعريف المنوّه بهِ. فمنها الرقيق (٢ ثم الجِزَز الارجوانية والزيوت العطرية المودعة في قماقم من الرخام الابيض (٣ او في ظروف من جلد المعز. ثمّ زيت الزيتون والشحم والملوحات المتنوّعة ثمّ الجلود ثمّ الثياب والاقمشة (٤

---

١) يعلم القرّاء ان ذلك الملك صرف وقتاً طويلاً لزيارة اقاليم مملكته فقد سافر الى جميعها وبنى فيها بعض المدن واطلق عليها اسمهُ. فمدينة ادرنه مثلاً وهي من اعمال الروميلي الحالية انما سميت Andrinople اي Hadrianopolis اكراماً للملك المذكور

٢) كان الرقيق في الازمنة القديمة يُعَدّ من جملة البضائع. وقد اتّفقت الديانة مع التمدُّن في زماننا لإلغاء بيع الرقيق

٣) ولعلّ القارورة التي كسرتها مريم المجدليّة وافاضت طيبها على رأس سيدنا يسوع المسيح لهُ المجد هي من جملة البضائع المشار اليها هنا في تعريف تدمر

٤) ومن عجيب الامر انهُ يوجد في جملة عاديّات المسيو دي فوكويه حجَرة نُقشت في تدمر وحُفر عليها صورة شخصٍ يحمل على رأسهِ قلنسوة تُشبه الطربوش الشرقي. ويتّضح ايضاً من تمثالٍ للعلّامة نفسهِ ان اهالي تدمر كانوا يضعون تحت تلك القَلنسوة مِعرقةً (عراقية) رقيقة خفيفة لتنشيف عرق الرأس (راجع V., p. 76)

ثم الغلال المختلفة والافاويه والاثمار اليابسة كحب الصنوبر والجوز واللوز (١ ثم العقاقير ثم الملح (٢ الى غير ذلك من ضروب المواد التجارية

اما وحدة الضرائب المكسية فكانت الحملة كما هو جار في يومنا. وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام حملة الحمار وحملة الجمل وحملة العجلة. وكان ثقل الاولى نحو مئة كيلو. والثانية اثقل منها بثلاثة اضعاف. اما الثالثة فيبلغ وزنها نحوًا من ١٠٠٠ كيلو (٣

قال الماركيز دي ڤوگويه: « وكانت القوافل التي تحمل الى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدواب الابل والحمير (٤ واذا وصل التجار الى حاضرة زينب انزلوا عن ظهر الدواب

---

١) راجع Schröder : *Sitzungb. d. Preuss. Acad. d. Wiss.*, 1884, p. 19 . ولا شك في ان بلاد الشام لاسيما مدينة بيروت المشهورة منذ القدم بغاباتها الصنوبرية كانت تبعث كمية وافرة من تلك الافاويه الى بلاد الرومان والفرس

٢) كان هذا الملح يُحمَل اما من سواحل بحر الروم او من مالح تدمر. وفي براري الشام مالح كثيرة الى يومنا. فلاهالي متصرفية الزور مثلاً مملحة عظيمة في بحيرة موقعها بالقرب من الفرات. وقد اخبرنا المؤرخون والسياح ان الملح كثير الوجود في انحاء تدمر. ففي وادٍ يدعى وادي الملح مملحة واسعة يستخلص اهالي تدمر ملحها ويحملونهُ الى حلب حيث يبادلونهُ بالقمح. (راجع تآليف ابي الفداء وچسنه وبرنوقيل وغيرهم) وقال قوم ان ذلك الوادي هو المكان الذي انتصر فيهِ الملك داود على جيش السوريين (راجع سفر الملوك الثاني ٨ : ١٣ و Halifax : *Philosophical transact. of London*

٣) ان ضيق المكان يمنعنا من الاسهاب في وصف تجارة تدمر مع ما في هذا البحث من واضح الفائدة. فمن رغب في معرفة تفاصيل الامر عليهِ بما ذكرهُ الكتبة المحدثون لاسيما دي ڤوگويه J. A. 1883 ونولدك وساخو Z D M G, 1883 وركندرف Z D M G, 1888. فمن هؤلاء المؤلفين اقتبسنا هذه النبذة في تجارة تدمر

٤) وكانت لقوَّاد القوافل منزلة رفيعة بين مواطنيهم وهم في عيونهم بمثابة قادة الجيوش. ولا غرو لانهُ كان يقتضي على هؤلاء الرؤساء ان يجمعوا مؤونة كافية لسفرٍ ربما طال اكثر من مدة شهرين ويجندوا رجالاً شاكي السلاح مستعدين للقتال. واذا شدوا الرحال كان ينبغي لهم ان يتوقوا غزوات اهل الوبر بما لديهم من الخبرة بانواع الحيل. او اذا لم يتمكنوا من ذلك ان يتجنبوا مهاجمة تلك القبائل المتناصة فيستميلوها ببعض العطايا. او اذا فاجأتهم شرذمة من البدويين أن يردُّوا غارتهم ويشتتوا شملهم. الى غير ذلك من الامور والحوادث المعروفة عندهم. فلذا كانت وظيفتهم عالية وترى في جملة أخربة تدمر عدة آثار مخصصة لذكرهم ومجدهم (راجع V., N° 5)

الجوالق والاثقال المختلفة وحمّلوها على العَجلات (κάρρος) ليوجّهوها الى جميع انحاء المملكة على السكك والشوارع الرومانية. فاذا بحثتَ عن اسباب تقدُّم تدمر وبلوغها الى ذروة العمران وجدت لذلك سببين الاوّل مرور البضائع بها واقامتها فيها مدةً ودفع المكوس الى خزانة المدينة والثاني شهرة اهالي تدمر دون سواهم بقيادة العِيرات في مفاوز الصحاري. فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني للمسيح كمرفإٍ عظيم على بحر البراري ترسو عند ساحلها تجارة الامم فتُغني خزائنها كما جرى في الزمن المتوسط لمدينة البندقيّة سلطانة بحر الروم. . .(١

« هذا والكتابة المذكورة جليلة الفائدة في معرفة اخبار تدمر واحوالها الداخلية. ومن قرأها وتأملها فيتخيَّل انَّهُ يحضر تلك الحركة العجيبة من الرجال وقوافل الدوابّ والبضائع ويشاهد عياناً ذلك الاختلاط الغريب من التجار والباعة والنخّاسين والبزّازين واصحاب الدواعي والقضاة ويندهش لازدحامهم في رحب شوارع المدينة وساحاتها الواسعة الارجاء. وأروقتها الشاهقة الباهرة التي يتواتر سيّاح العصر الى نظر آثارها المذهلة

« امّا وجه التدبير الجاري في ولاية تدمر فلا يظهر باقلّ وضوح في التعريف الذي نحن بصددهِ. فانهُ يبيّن لنا ان مدينة زينب كان لها في ذلك الزمان مجلسٌ وطني (Se-natus) يسنّ السنن ويشرع الشرائع. وهو عبارة عن رئيس وكاتبٍ وعدّة اعضاء(٢. امّا السلطة الاجرائية فكانت مسلّمة الى شيخين (Archontes) وديوانٍ متألفٍ من عشرة حكّام (δεκαπρώτοι). اما السلطة القضائية فتختصّ ببعض الوكلاء (Syndics) وغيرهم من العمّال. وزد على كل ذلك افادات تنبئنا بشأن الشرائع وطريقة وضعها لان التعريف المذكور يشير الى الرسائل التي وجّهها جرمانيقوس وكوربلون (٣ الى بعض

---

١) لا شكَّ ان تدمر كانت تحفظ لنفسها قسماً من دَخلها السنوي بعد ان تؤدي لرومة الجزية المفروضة عليها

٢) ومما يتضح من القرائن ان سلطة هذا المجلس كانت عظيمة. الّا انَّ سنّ الشرائع لم يُفوّض اليهِ وحده (راجع ركندرف Z D M G, 1888, p. 390)

٣) يعلم القرّاء ان جرمانيقوس هذا (١٢ ق م – ١٩ ب م) هو الذي تبنّاهُ طيباريوس قيصر فارسلهُ الى الاقاليم الشرقيّة لبعض الشؤون فاقتضت عليهِ الاحوال ان يتداخل في امور سورية لمقاومة سوء تصرّفات پيزون (Pison) الذي كان في ذلك الزمان والياً على بلاد الشام.

مأموري الخزانة في تعيين الفرائض الديوانية وغيرها من امور التجارة . وفي ذكر هذين الرجلين بيان لتاريخ تدمر وضبط عهدهِ لانها توضح لنا ايضاحاً جلياً ان عاصمة زينب كانت خاضعة للدولة الرومانية منذ ابتداء النصرانية » (١

٧

امَّا تاريخ هذا الخضوع فلا يُعرف حقّ المعرفة لِعَدم الدلائل عليهِ . ومع ذلك فلا شكّ في ان انضمام تدمر الى ممالك الرومان لا يرتقي الى ما فوق السنة السادسة والثلاثين قبل المسيح . فقد ورد في تاريخ ابيانوس الروماني (De Bello Civili, V,9) ان مرقس انطونيوس القائد الروماني بعد ان حارب في تلك السنة الملوك الارشكيين ودارت عليهِ الدوائر توجّه الى الشام عائدًا من ثمَّ الى رومة . فلمَّا قرب من تدمر أوفد الى اهلها رسلًا يخبرونهم انَّهُ قاصد مدينتهم ليُريح عندهم جنودهُ ممَّا نالوهُ في الحرب الاخيرة من المشقَّة والعناء . لكنَّ هذا القائد كان يضمر الشرّ لاهل تدمر وكانت نيّتهُ الخفيّة ان يطلق جيشهُ على المدينة فتكون لهم غنيمة باردة يملكون اموالها ونفائسها صفوًا عفوًا

فلم يلبث التدمريّون ان اطّلعوا على حقيقة الامر فاخذوا حذرهم من غارة الرومان وبادروا الى نقل اموالهم وعيالهم وعبروا الفرات مُسرعين . فلمَّا سمع القائد بذلك تعقَّب آثارهم حتى ادركهم واقتتلوا قتالًا شديدًا كانت الغلبة فيهِ للتدمريين . فولَّى الرومان مُدبرين وقد لحقهم من الاضرار ما لم يُنلهم قبلُ من الفُرس . وهذا على ما نَرى دليل واضح على ان تدمر لم تذعن للدولة الرومانية الَّا في اوائل النصرانية كما مرَّ

امَّا الزمن الذي فيهِ اصابت تدمر حقوق مستعمَرة رومانية فهو امرٌ ذهب فيهِ الكتبة مذاهب مختلفة يطول شرحها بالتفصيل . وما لا شبهة فيهِ ان تدمر كانت مُحرزة لتلك التسمية الشريفة في عهد كراكلاَّ (٢١١ — ٢١٧) كما يتَّضح من كتاب أُلپيان الفقيه (٢ .

امَّا كوربلون فكان قائدًا في عهد قلوديوس ونيرون وُجّه الى المشرق لمحاربة الفرس فلما انتهى من امرهم رجع الى رومة فلم يلبث الَّا يسيرًا من الزمن حتَّى قتلهُ نيرون (٦٧ م)

١) راجع R. Duval : J. A. 1883, p. 534 و de Vog. : J. A. 1883, p. 180

٢) راجع Digest. L, 15, 1. حيث قيل ان تدمر كانت من جملة المدن التي اكتسبت الحقوق الايطالية Jus italicum اي حقوق المستعمرات الرومانية العليا . وكانت المستعمرات في عهد القياصرة على ثلاث طبقات . الاولى وهي السفلى لم تمنح للمدينة الَّا شرفًا دون امتياز . والثانية وهي المتوسطة كانت تخفّف عن المستعمرة وطأة الخراج . امَّا الثالثة وهي العليا فتنيل المدينة عدَّة

قال وادنكتون (١ : ان القيصر الذي وهبها هذه الرتبة والحقوق المنوطة بها انّما هو الملك سبتيميوس ساويرس (١٩٣ — ٢١١ م). لكنّنا نؤثر رأي دي ڤوگويه (N° ٤) ودُوبل ودرُوين ونظنّ انّ الامر يرتقي الى عهد القيصر ادريانس لِمَا في الكتابة المكسيّة الموصوفة آنفًا من الادلّة الواضحة على علوّ مرتبة تدمر بين المستعمرات الشرقية في ذلك الزمان (٢ . واذا رُدّ قولنا فاقلّ ما يجب التسليم بهِ هو انّ الملك ادريانس الذي قد جلّت ايادِيهِ على تدمر منحها منصبًا رفيعًا يُسمَّى عندهم (μητροκωμία) اي رأس الاميريّة على جميع القرى المجاورة لها في بطون البراري (٣

هذا ولمّا كان ادريانس صرف همّتهُ في مصالحة الشعوب المحيطة بالممالك الرومانية طفقت مستعمرة تدمر تفلح وتنمي وترتقي الى قمّة الغِنَى والثروة وكانت قفولها العظيمة تقطع دون ملَل المسالك التي اشرنا اليها في خارطتنا وتسعى في رواج تجارة الرومان ومصالح سياستهم. وكذلك كان الامر في ايّام انطونينوس پيوس خَلَف ادريانس. فان هذا القيصر الذي استوى اكثر من عشرين سنة على عرش رومة بسط على وجه المعمور الصلح والسلام فكانت ايّامهُ طيّبةً والخيرات فيها دارّةً والولايات عامرةً. فبذلك تسنّى لمدينة تدمر ان تشدّد بينها وبين الدولة الرومانية العلائق والروابط الوداديّة فازدادت شوكتها وعلا قدرها وشمل العمران كلّ انحائها وكان هذا لكلا الفريقين رِدْءًا عظيمًا لاسيما وقتَ ظهر ازدشير بن ساسان فاباد دولة بني ارشك وتبوّأ تخت السلطنة (سنة ٢٢٦). فلمّا استفحل امر بني ساسان خاف الرومان من سطوتهم فبادر اسكندر ساويرس الى محاربتهم

معافيات وحقوق منها حقّ الامتلاك التامّ والاعفاء عن الخراج والحريّةُ الكاملة في سياسة المدينة وتدبيرها

١) W. 2585

٢) راجع W. p. 596, col. 1 و N° 2616 حيث يتّضح ان بعض رجال تدمر من اعيان البلدة وشرفائها اتخذوا اسم ادريانس مع حقوق المدنيّة الرومانيّة التامّة. — راجع ايضًا : Drouin *La Numismatique Araméenne*, J. A. 1889[1], p. 392 وكتاب المسيو دوبل : Double *Les Césars de Palmyre*, p. 10 . (وقد تكرّم احد ادباء بيروت فاطلعنا على هذا التأليف الذي ابدينا الأسف في اوّل مقالتنا على عدم تصفُّحه)

٣) راجع *Notitia Dignit.* I, p. 85 و Corp. Inscript. Græc. 4485, 4496, 4499 و Procop.: *De Ædif.* II ,11

(٢٢٩) واحبَّ ان يجتاز بتدمر حيث استقبلهُ زينوبيوس قائد الجيش التدمري . وفي تلك الاثناء حصل آل أُذينة بنو السُميدع على مرتبة الشيوخ (١

وكانت صنائع اليونان وفنونهم وجميع اسباب العمران الروماني قد ولجت ابواب تدمر منذ زمن قديم ونفذت فيها اي نفوذ (٢ فتقاطر اليها من كل اوب الصنَّاع المهرة والعَمَلة الحُذَّاق بآداب البنيان فشيَّدوا فيها من الهياكل والمعابد والمنازل والمشاهد والملاعب والقبور ما يخلب الالباب ويستدعي العجب العُجَاب (راجع صورة المشهد العام لآثار تدمر) . ومع ذلك فلم تزل مدينة تدمر تحفظ سننها الوطنية وعوائدها الخصوصيّة كسائر الاقاليم الشرقية المذعنة للرومان وبقيت آداب التدمريين ولغتهم آراميةً رغماً عن شيوع اليونانية في المعاملات الرسمية (٣

هذا واذا اعتبرتَ ان العهد الذي فيهِ ارتقت حاضرة زينبَ الى اوج التمدن هو نفس الزمن الذي بهِ تواتر على عرش رومة بعض الملوك الشرقيين كسپتيميوس ساويرس واسكندر

---

١) راجع W : 2598 ان اوَّل من جاء ذكرهُ من بني السميدع في الكتابات التدمرية هو نصور (נצור) ثم ولده وهبلات ثم خيران (חירן) ابن وهبلات وهو الذي سار بصحبة سپتيميوس ساويرس الى محاربة الارشكيين وفي آخر هذه الحرب تسمَّى باسم سپتيميوس ذكرًا بوليّ نعمهِ . V., nos 21 et seqq.

٢) ولنا في ذلك برهان لا مرد عليهِ وهو كتابةٌ حُفرت في السنة ١٠٣ (ب . م) على قبر محكم البناء بديع الصنع قد نقشتهُ يدُ الصنَّاع اليونانيين . اما الهيكل العظيم المختصّ بعبادة الشمس وغيره من الابنية العجيبة البهاء (وهي من الشكل الكورنثي السوري) فالارجح انها تنتمي الى هذا العهد ايضاً . (راجع Chesney : I, p. 526) . ومن جملة آثار تدمر معبد صغير يسمَّى هيكل والدة الملك وهو يرتقي الى السنة ١٣٠ وقد كُتِب على احد اركانه اسم ادريانس القيصر . اما قول الذين ينسبون هذه الابنية الى زينب فلا سند لهُ بل هو خطأ بيّن لانَّ الهياكل التي بُنيت في عهد ملكة تدمر كهيكل بعلبكّ مثلاً يدل شغلها على ان صناعة البنيان قد انحطَّت من سذاجتها الاولى وخلوص اشكالها الى تكاثر النقوش واختلاط الصور . (راجع Wright, *op. c.*, p. 63 و Revue des Deux Mondes, 15 Juillet 1897, p. 380) . اما العمران الروماني فالمراد بهِ جملة اسباب الرفاهية وسعة العيش من حيث اختيار الاطعمة والالبسة والمساكن وغيرها من امور الزهو ودواعي اللذة التي بها اشتهر الرومان على من سواهم من شعوب المسكونة

٣) راجع نولدك Z D M G, 1885, p. 333

ساويرس وفليبوس العربيّ فلا تَتَعجب من كون ستيميوس أُذينة الاوّل قد تجاسر على خلع السلطة الرومانية واقامة دولة مستقلّة تحتوي على انحاء البراري وبلاد العرب الشمالية. وكان هذا الرجل ابن خيران بن وهبلات بن نصور من بني السميدع كما مرّ وانتهز الفرصة فادّعى المُلك. فلبّى قومُهُ الى دعائهِ وسموهُ ملكًا في نحو السنة (٢٥٠ م) فلمّا قويت شوكتهُ فطن لامرهِ القيصر الروماني واراد ان يُخمد ضرام فتنتهِ فامر بقتلهِ فقُتل (١

وكان لأذينة الاوّل ابنان اكبرهما يدعى سبتيميوس خيران والاصغر سبتيميوس أُذينة فاخذ خيران بعنان رياسة مجلس الشيوخ بعد قتل ابيهِ ولم ينصب الكائد على الدولة الرومانية كما فعل ابوهُ. فلمّا مات عن ولد صغير يدعى (ממלו) مَعْنَي وباليونانية (Μαννάιος) خَلَفه اخوهُ أُذَينة الثاني وكان قبل ذلك قد استولى على قيادة الجيوش والعيرات وقبائل بادية الشام وفي السنة ٢٥٧ منحهُ وَلِريانس القيصر رتبةً سامية فدعاهُ قنصلًا (vir clarissimus consularis) او سيد البلدة (٢

وكانت تلك الايام ايّام فِتَن وحروب وقد ذلّل شابور بن ازدشير رقاب الرومان في اقاليمهم الشرقية فعزم وَلِريانس على محاربة الفرس وزحف مسرعًا الى بلادهم (٢٥٩ م). الّا أنّ مكريانس احد قوّاد جيشه خانهُ فاضلّ الجنود واسقط القيصر في ايدي الاعداء بجوار الرها فاسرهُ سابور واذاقهُ مرّ الهوان ومثّل بهِ (في بدء السنة ٢٦٠)

وكان أُذينة رجلًا ذا شجاعة وبأس قوي القلب من ابطال العرب قد نشأ على آداب

---

١) والذي قتلهُ هو على راي وادنكتون (N° 2600) رجل اسمهُ روفينوس قد ارسلهُ القيصر لمناظرة امور سورية

٢) او ὑπατικός الذي معناهُ المُرسَل القنصلي. قال الاب مرتين اليسوعي: ان هذه الدرجة توازي وظيفة والي سورية وفينيقية. (راجع ايضًا W : N° 2602). وقال بعض المؤرخين ان أُذينة كان في اوّل امره قد صمّم على الاخذ بثار ابيهِ وشارك رجلًا اسمهُ كيرياديس (Cyriadès) لاقامة دولة مستقلّة في انحاء المشرق. (راجع Double, : l. c., p. 23) الّا انّ في الامر نظرا. والارجح عندنا ان كيرياديس هذا لو صحّ وجودهُ قد شارك أُذينة الاول في خروجه على الرومان نحو السنة ٢٥٠ كما قيل (راجع W : N° 2600). وعلى كل حال فلم يعتِم أُذينة ان ينتصر للدولة الرومانية فقاتل جميع اعدائها

اهل البادية وكان مغرًى في صحاري الشام يصيد الذباب والفهود والاسود (١ فلمّا انتهى اليهِ خبر القيصر وما لحقهُ من العار والذل تهيّب سطوة سابور وفكّر في وجه استعطافهِ فاوفد رسُلًا يحملون اليهِ الهدايا والالطاف مع كتابة يلتمس فيها أُذَينة من ملوك الفرس الصلح والمعاهدة

فلم يجاوب شابور الى طلبة أُذينة بل تجبَّر وتكبَّر وامر بخرق الرسالة ورمى الهدايا في الفرات

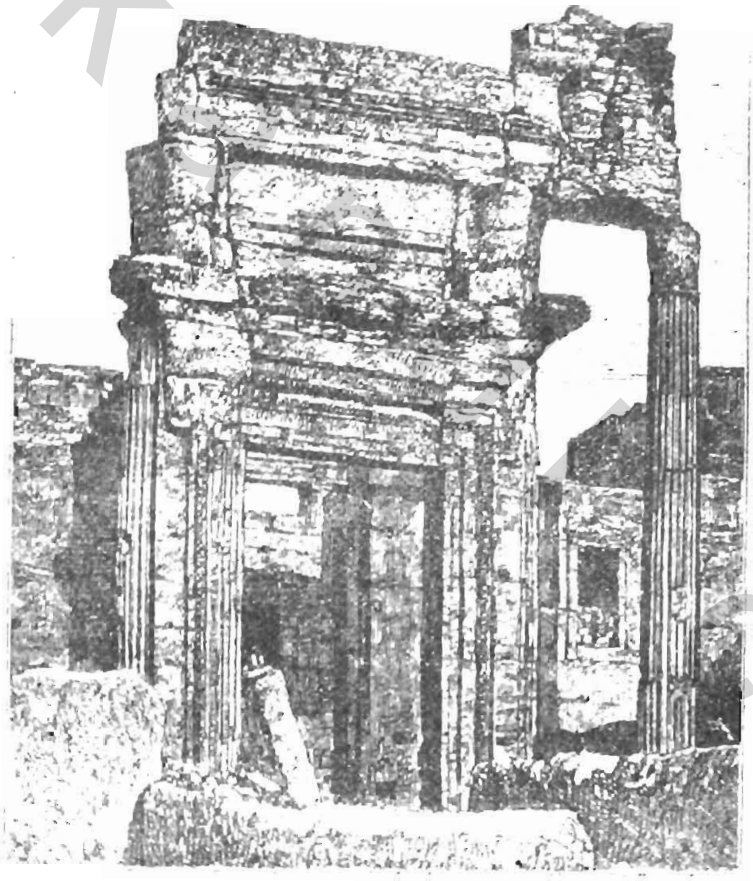

مدخل قصر أُذينة وزينب (عن صورة شمسيّة)

(١ (راجع تريبليوس *Trig. Tyr. 14*). اعلم ان الاسود والفهود لم تزل الى يومنا هذا تتردد الى الوديان المجاورة لتدمر

فلمّا رجع رُسُل أذينة الى تدمر واعلموهُ ما كان من امرهم فار فاثرهُ وتلظّى غيظاً ثم صمّم على الانتقام من شابور وتأهّب لمحاربة الفرس وانتدب لذلك قبائل العرب فلبّوا الى دعائهِ وطاروا اليهِ زرافات فجمعهم بظاهر تدمر وولّى رئاستهم ابنهُ هروديس (وامهُ غير زينب) . وضمّ اليهم فرسان تدمر وقواسيها وجعلهم تحت امر زَبْدا كبير قوّادهِ وزبّاي زعيم فرسانهِ (١ وحشد معهم الكتائب الرومانية التي كانت وقتئذٍ في الاقاليم الشرقية وألحق بهم بعض الجند الذين افلتوا من هزيمة ولريانس وتوجه توًّا الى المدائن

وكان شابور بعد ان دوّخ عساكر القيصر قد اخذ يغزو الانحاء الشمالية واوقع في

١) وكان زبدا (זבדא) وزبّاي (זבי) من آل سپتيمية اي من قرابة أذينة وزينب كما مرَّ بيانهُ . ولا شكَّ انَّ المؤرخين الذين قالوا ان زينب كانت اختًا للزبّاء شبّهت عليهم الاسماء ولم يدركوا ان لملكة تدمر اسمين اعني بها اسمها الارامي بت زبّاي واسمها اليوناني زينب فنسبوا الى مَن ظنّوهُ اختًا لها ما يصحُّ عن زبّاي القائد المذكور كما انهم نسبوا الى زبّاي (بصورة الزباء) كل ما فعلتهُ ملكة تدمر . وكان عرب الجاهلية يعرفون زبّاي القائد حق المعرفة لكثرة ما كان بينهم من العلائق في امور الحرب والغزو . وهذا على الرأي الأعمّ مصدر الاغلاط التي وقعت في تآليف العرب بصدد اسم زينب وجنسيتها واخبار اختها الموهومة وقوّادها

وهنا يحسن بنا ان نعود الى ذكر القناة الرومانية (راجع مقالتنا الاولى ص ٥ و ٦) المبنيّة بجوار بيروت التي ينسبها بعض السوريين الى زينب وغيرهم الى زُبَيدة . فخلطوا ايضاً بين الاسمين وشطّوا في المقال . نعم اننا لا نجهل انَّ لزينب ملكة تدمر ولزبيدة زوجة هرون الرشيد الشُّمعةَ الطائرة في انحاء الشرق اشتهرت كلتاهما بجمالها وآثارها العديدة الّا ان بينهما ايضاً تبايُنًا عظيماً . فان قيل ان اهل سورية نسبوا الى زُبَيْدة بناء هذه القناة لانَّها بنت قناةً اخرى لاستجلاب مياه بعض العيون الى مكّة فخلطوا بين القناتين أجبنا انَّ في هذا الامر لنظرًا لانَّ اهل سواحل الشام يجهلون مثل هذه الاخبار التي لم يروها الّا بعض افراد المؤرخين وان قيل ان السوريين لاسيما النصارى منهم يتناقلون بينهم اخبار عجيبة في شأن زُبيدة (راجع المكتبة الشرقية للسمعاني ٣ : ١٦١) قلنا ليس ذلك بسبب كاف لأن ينسبوا اليها بناءً لم تشيدهُ بل لم تعرف وجودهُ في وادٍ من اودية جبل لبنان

وان سألنا احدٌ عن رأينا أجبنا ان حلّ هذه المشكلة ليس بسهل لعدم الدلائل التاريخية الواضحة فجلّ ما يمكننا ان نوردهُ هنا ان الاهلين ربّما ارادوا بزبيدة (او زيدا) لا زوجة هرون الرشيد بل ملكة تدمر عينها . وذلك لان بين زينب وزيدا بعض الشبه وقد سَهُلَ انتشار هذا التصحيف بين العامّة لكثرة ورود اسم زيدا وزينب في البلاد الآرامية لاسيما في تدمر . ومما يؤيد صحّة رأينا انهُ قد تُرجم اسم زيدا بزينوبيوس في كتابة تدمرية ادرجها المركيز ديفوگويه في مجموعهِ المعروف . (راجع V. n° 65)

قلوب الاهالي الرُّعب والهلع . فانتهز هذه الفرصة وزحف الى انطاكية (١ وفتحها عنوة واباد سكانها قتلًا واسرًا . ثم استأنف المسير الى بلاد قپادوقية وليقاونية و قيليقية وتوغَّل فيها حتى انتهى الى مدينة پُمپيوپوليس الساحلية فشرع بمحاصرتها . وبينما هو على ذلك اذ فجئهُ قائد روماني مستقلّ اسمهُ كاليستوس (ويروى باليستا) وشتَّت شمل جموعهِ فاجفل الفُرس مسرعين الى بلادهم (٢

فلمَّا علم أُذينة وهو على طريق المدائن ما لحق بالاعداء من سوء المنقلب انثنى راجعًا وسار الى ملاقاة الفرس باسرع مدّة وادركهم قبل عبورهم الفرات . ثم نهض اليهم وقاتلهم اشدّ قتال فدارت الدوائر على الفرس ثانية وعبر كسرى النهر مهزومًا مدبرًا . فغنم أُذينة اموالهُ واسر حرَمهُ وكاد ينقذ وَلِريانس القيصر من ايدي العدوّ . ومما ورد في التواريخ القديمة ان زينب كانت بصحبة زوجها وان هروديس وقبائل العرب ابلوا في هذه الوقعة احسن بلاء (٣

فلمَّا انقضت الحرب بعث ملك تدمر الى غاليانس بن ولريانس رسلًا يخبرونهُ بكسرة الفرس ويضمنون لهُ بخلوص نيَّة أُذينة وصدق خدمة التدمريين للدولة الرومانية . فوقع هذا الخبر في قلب غاليانس احسن موقع ورفع منزلة أُذينة ودعاهُ قائدًا عامًا على جميع عساكر المشرق وحثَّهُ حثًّا قويًا على مواصلة حرب الفرس لينقذ ولريانس اباهُ من ايدي شابور

ولم يلبث أُذينة الَّا يسيرًا حتى ركب ثانيةً في عسكره فاطلقهم على بلاد الجزيرة

---

١) والمؤرخون الذين يجعلون خروج كيريادس (راجع ص ٥٩٢) بعد هزيمة ولريانس يخبرون ان هذا الخائن هو الذي ارشد شابور الى انطاكية ويزيدون على ذلك ان كسرى رقَّاه الى الدرجة الامبراطوريَّة احتقارًا لشأن الرومان . الَّا ان كيريادس لم يلبث على العرش سوى شهر او شهرين فخرج عليهِ القوم واحرقوهُ حيًّا . (راجع Müller : *Hist. Græc. Frag.*, *t.* IV. p. 191 وزوناراس ٢١ : ٢٣ ولينورمان (*La Monnaie dans l'antiq.* II, 386

٢) راجع زوزيموس ١ و ٢٢ و Petr. Patric. *Excerpt.* p. 25, 29

٣) ومُعظم المؤرخين يقولون ان أُذينة لم يقصد من هذه الحرب الَّا الانتقام من سوء تصرف شابور نحوه . (راجع الطبريّ في تاريخ الساسانيين ترجمة نولديك ص ٣٢ : ٤) وهذا اقرب الى الصواب لان أُذينة لم ينتصر للدولة الرومانية ولم يخلص لها الخدمة الَّا بعد ان رفعهُ غاليانس الى مرتبة امير عامٍّ على العساكر الشرقية . (راجع ما سبق في هذه المجلَّة الصفحة ٣٤)

جدول
لبعض الخطوط الشرقية
كما وجدت في الكتابات القديمة

الخط النسخي	الكوفي	العبراني ٨٠٠–٥٠٠ ب٠م	السطرنجيلي ٦١١ ب٠م	التدمري ٢٦٠–١ ب٠م	التيماوي ق٠م	الفينيقي ٨٩٠ ق٠م
ا	ا	𐤀	𐤀	𐤀	𐤀	𐤀
ب	ب	𐤁	𐤁	𐤁	𐤁	𐤁
ج	ج	𐤂	𐤂	𐤂	𐤂	𐤂
د ذ	د	𐤃	𐤃	𐤃	𐤃	𐤃
ه	ه	𐤄	𐤄	𐤄	𐤄	𐤄
و	و	𐤅	𐤅	𐤅	𐤅	𐤅
ز	ز	𐤆	𐤆	𐤆	𐤆	𐤆
ح خ	ح	𐤇	𐤇	𐤇	𐤇	𐤇
ط ظ	ط	𐤈	𐤈	𐤈	𐤈	𐤈
ي	ي	𐤉	𐤉	𐤉	𐤉	𐤉
ك	ك	𐤊	𐤊	𐤊	𐤊	𐤊
ل	ل	𐤋	𐤋	𐤋	𐤋	𐤋
م	م	𐤌	𐤌	𐤌	𐤌	𐤌
ن	ن	𐤍	𐤍	𐤍	𐤍	𐤍
		𐤎	𐤎	𐤎	𐤎	𐤎
ع غ	ع	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏
ف	ف	𐤐	𐤐	𐤐	𐤐	𐤐
ص ض	ص	𐤑	𐤑	𐤑	𐤑	𐤑
ق	ق	𐤒	𐤒	𐤒	𐤒	𐤒
ر	ر	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓
س ش	س	𐤔	𐤔	𐤔	𐤔	𐤔
ث ت	ت	𐤕	𐤕	𐤕	𐤕	𐤕

obeikandl.com

وفتح نصيبين وحرّان وضمّها الى اقاليمهِ واخذ منهما بعض الجنود فبادر الى محاصرة المدائن. فخاف شابور على حاضرة ملكهِ وندم على ما فرط منهُ في حقّ أُذينة اذ ردّ رسلهُ ورفض معاهدتهُ ولكن فات حين ندم. فلم يبقَ لملك الفرس الّا ان يتلافى الامر فيمنع التدمريين من غزو ممالكهِ. فندب لذلك جميع مرازبتهِ وارسل المجوس الى اقاصي فارس ليحرّضوا اهل دولتهِ على قتال أُذينة والرومان فجمعوا لهُ عسكرًا كثيفًا واستعدّوا للقتال. وما كاد أُذينة يصل الى جوار المدائن حتى التقى الجمعان واشتدّ القتال وحمي الوطيس وكانت الغلبة للتدمريين فولّى شابور هاربًا الى عاصمتهِ تاركًا نساءهُ وحشمهُ (٢٦١ م). فتبعهُ أُذينة وتقدّم لحصر تلك المدينة المشهورة التي كانت تُعدّ وقتئذٍ من اجمل مدن الشرق واحصنها(١ فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وآلات الحرب فاشتدّ الامر على كسرى وذويهِ حتى كاد يلتمس منهم الأمان

الّا انّهُ قد اتت لأُذينة اخبار كدّرت نفسهُ واقتضت انقطاعهُ عن محاصرة المدائن. فان مكريانس ذلك القائد المحتال الذي خان ولريانس كان قد صمّم على اغتصاب منصّة القياصرة. وقد شجّعهُ على عزمه الشنيع كاليستوس القائد الذي ردّ شابور عن قيليقية. فسماهُ مكريانس واليَ الجندية (Préfet du prétoire) اي نائبهُ الاعلى في سياسة الامور المدنية والعسكرية واتّفقا معًا على استمالة العساكر الرومانية فبويع لمكريانس في بلاد آسية الصغرى ومصر ولاسيّما في الاسكندرية حيث ضرب هذا المغتصب نقودًا عديدة تشهد الى يومنا بقحتهِ وسوء تصرّفهِ

٩

وكانت في تلك الايام مملكة الرومان في اضطراب عظيم وقلق جسيم لم يُرَ مثلهُ في ما مضى من الزمان. فكان بُستوموس قد خرج على غاليانس (٢٦١ م) وقتل ابنهُ

(١ راجع زوزيموس ١ وتريبيليوس *Trig. Tyr.* 14, *Gall.* 3 وقد اكثر العرب من وصف المدائن واسترسلوا في ذكر ايوان كسرى وبنائهِ العجيب قال البحتريّ (راجع ديوانهُ ص ١٠٨)

وكأنّ الايوان من عجب الصنعة جوبٌ في جنبِ ارعنَ جلسِ
مشمخرٌّ تعلو لهُ شرفاتٌ رُفعت في رؤوس رضوى وقدسِ
ليس يُدرَى أصُنعُ إنسٍ لجنٍّ سكنوهُ ام صُنع جنٍّ لإنس

فللجنّ كما ترى اليد الطولى في امور البنيان عند فحول شعراء العرب نسبوا اليهم ايوان كسرى كما نسبوا ابنية تدمر وبعلبكّ وغيرها من اعمال الجبابرة

سالونينوس واختطف الاقاليم الغربية . واما مكريانس الخائن فكان بعد اغتصابهِ الاقاليم الشرقية ارسل پيزون احد قوّاده الى محاربة والِنس والي اخائيَّة من بلاد اليونان . فلمَّا علم والنس انَّ پيزون زاحفٌ اليهِ ناويًا مبارزتهُ ادَّعى الملك لنفسهِ وبايعتهُ العساكر التي كانت تحت امره . فتخوَّف پيزون من تقصير يقع بهِ اذا تعرَّض لهُ ودخل ولايتهُ فوقف في بلاد تسالية واستمال اليهِ جنودهُ ولم يزل يستعطفهم حتَّى اختاروهُ لهم ملكًا وخوَّلوهُ رتبة القيصر . وكذا فعل قائد آخر يسمَّى أُريولوس بنواحي إلّيرية وحذا مثالهم قائد رابع اسمهُ اميليانس بالاقطار المصرية

وبينما كان هؤلاء الخوارج يكدّرون صفاء كاس الدولة ظهر القوط وغاروا على ولايات ثراقية واخائية وسواحل آسية الصغرى فنهبوا البلاد وفتكوا بسكّانها وقوّضوا الابنية . ومن جملة الآثار التي خربوها هيكل مشهور في مدينة افسس مختصّ بعبادة الإلهة «ديانة» وكان هيكلًا بديع الصنع يُعدُّ من عجائب العالم السبع . وفي تلك الاثناء برز قوم اخر من البرابرة يقال لهم الهيرول (Hérules) واخذوا يغزون جزائر الارخبيل وشواطىء بلاد اليونان . وزد على ذلك زلازل عديدة طرأت على انحاء المملكة فانهدمت من جرّائها عدَّة مدن مع ما سرى من انواع العاهات والعُدوى التي ارتعدت لها فرائص الامم (١ . ولسوء الحظّ لم يكن على عرش رومة من يقوى على مقاومة الخوارج واصلاح الفساد الذي استشرى في المملكة . وكان ولريانس معتقلًا لم يزل في ايدي شابور مع ما بذل أُذينة من الجهد في استنقاذهِ من العبودية والهوان (٢ امَّا غاليانس فانهُ لم ينهض باعباء السياسة نهوضًا لائقًا (٣ رغمًا عمَّا وصفهُ بهِ بعض المؤرّخين من الحزم والقوَّة بل بقي متردّدًا في امرهِ لا يدري كيف يسدُّ الخلل ويضمُّ متفرّق النَّشَر وعليهِ فكنتَ ترى الممالك يتفاقم فيها الفساد فتستقلّ اقليمًا بعد آخر حتى انَّ المؤرّخين سمّوا هذا الزمان عهد الثلاثين ظالمًا (٤

---

١) وفي ذلك الوقت ظهر الوباء المسمَّى الطاعون الشرقي فانتشر في الاقاليم الشرقية لا سيما في بلاد مصر فاصاب هذا الداء الهائل جمًّا غفيرًا من اهلها اغتالتهم المنية بعد ان اذاقتهم مرّ النكال

٢) قيل ان ولريانس مات حتف انفه في نحو السنة ٢٦٢ الّا ان شابور لم يزل ينكّل بهِ حتَّى الممات . فلمَّا قضى نحبهُ دبغ جلدهُ وصبغهُ بلون احمر وعلَّقهُ في معبدٍ من معابد فارس استصغارًا لشأن الرومان (راجع Petrus Patric. *Excerpta*, p. 26 و Lactant. *De morte persec.* ٥

٣) راجع تريبيليوس *Gall. duo* 16, 17, 21

٤) اطلق الكتبة هذه التسمية على ذلك العهد معرّضين بالثلاثين منتصبًا الذين ظهروا في اثينة لكنَّ ذلك لا يطابق واقع

وكان أُذينة يؤثر خير الدولة الرومانية على خيرهِ وصالحهِ الخاصّ غير انهُ اخذهُ الارتياب وداهمتهُ الحيرة فكان لا يعلم أيواصل محاصرة المدائن ام يتركها مبادرًا الى مقاومة الخوارج. فبعد التروّي جزم على المباشرة بما رآهُ انسب لحفظ سلامة المملكة. فلم يعتم ان غادر المدائن ورجع الى تدمر حيث اتّخذ اسم الملك ثم اسرع المسير الى ملاقاة مكريانس. الّا ان هذا الباغي الشرير كان قد ترك الشام فصار الى مقاتلة غاليانس القيصر (١ بعد ان خلّف في الاقاليم الشمالية كياتوس احد ابنَيهِ ليقوم فيها مقامهُ وجعل معهُ كاليستوس (او باليستا) نائبهُ المذكور

وبينما كان ملك تدمر زاحفًا الى مدينة حمص اذ ورد خبر كسرة مكريانس وقتلهِ في بلاد الّيرية او ثراقية (٢ فتغيّر السوريّون عمّا كانوا عليهِ من طاعة كياتوس بن مكريانس وخلعوهُ والقوا بزمام امرهم الى أُذينة. فالتجأ كياتوس مع كاليستوس الى حمص وتحصّنا فيها مدّة وجيزة. فما لبثا ان داهمتهما فرسان تدمر وأحاطوا باسوار المدينة. فلمّا اخذوا بمحاصرتها علم كاليستوس أنْ لا سبيل لهُ الى النجاة فخان كياتوس سيّدهُ وضربهُ بالسيف وشدخ رأسهُ ورماهُ من فوق الاسوار عند قدمي أُذينة ثمّ فتح لهُ ابواب المدينة والتمس منهُ الامان. فمنحهُ أُذينة العفو ودخل البلد بعسكرهِ فاستقبلهُ الاهلون استقبالًا بهيًّا شائقًا (٢٦٢ م) (٣

وبعد ان اراح أُذينة جنودهُ بضعة ايام خرج من حمص يريد حرب بقيّة الخوارج. فبينا هو على ذلك اذ تمرّد عليهِ كاليستوس فانتدب اشياعهُ واطلقهم على المدينة فثاروا باهلهـا

الحال لانّ عدد هؤلاء البغاة لم يبلغ الثلاثين وانما كانوا تسعة عشر او عشرين فضلًا عن ان المؤرّخين لم يصيبوا بنسبتهم الى هؤلاء الرجال البغي والظلم فان بعضهم كانوا قوادًا معتبرين دافعوا عن حدود المملكة الرومانية بما اخذوا من الوسائل المانعة ضد البرابرة

١) راجع تريبيليوس *Trig. Tyr.* 11

٢) راجع تريبيليوس *Trig. Tyr.*2 وزوناراس ١٢ : ٢٣ وقد ورد في تاريخ اوسابيوس (٧ : ٢٣) ان النصارى فرحوا لهذا الخبر فرحًا عظيمًا لان مكريانس لم يزل يضطهدهم مدّة ولايتهِ في الاقاليم السورية ومنذ ذاك العهد امر غاليانس بكفّ اضطهاد المسيحيين في جميع انحاء المشرق كما فعل قُبَيل ذلك في الاقطار الغربية

٣) راجع زوناراس ١٢ : ٢٤ وتريبيليوس *Trig. Tyr.* 11-13

وضربوهم بالسيف (١ ثم الجأهم الباغي الى ان يبـايعوهُ ففعلوا و بدأ هذا الظالم يجول في البلاد مدَّعيًا الملك لنفسهِ . فلمَّا ورد على أُذينة خبر خروجهِ وسوء تصرّفاته ارسل عليهِ بعض المقانب ففجأوهُ في خيمتهِ واحتزّ رأسهُ احد الفرسان (٢

امَّا أُذينة فتمَّم فتوحاتهِ وشنَّ الغارة على نواحي الجزيرة واعمال فارس (٣ فمنحهُ الله اكتاف بعض مرازبة شابور وارسلهم الى غاليانس يُعلمهُ ان الاقاليم رجعت الى السكينة والسلم

وكان القيصر في تلك الاثناء قد ذلَّل رقاب البرابرة من الالمان والفرنج وقهر خوارج إليرية وغالية . فلما انتهى اليهِ خبر أُذينة سُرَّ بهِ سرورًا شديدًا ووافق ورود هذا النبأ خبر تغلُّب ثيودوت قائدهِ على اميليانس في بلاد مصر وانتصار قائد آخر على القوط . فلما كانت سنتهُ تلك السنة العاشرة لملكهِ تقدَّم بان يقام عيد فاخر تذكارًا لنُصرته على جميع اعداء الدولة الرومانية . فاحتُفل بالعيد في العاصمة بأُبَّهة عظيمة استرسل في وصفهـا المؤرّخ تريبيليوس پوليو

الَّا ان غاليانس رغمًا عن اخماد كل الفتن لم يكن ليستوثق من استقرار الملك لهُ وفكَّر في وجه تأييد اركان الدولة وتوطيد قواعدها . ففتَّش عن رجلٍ صالح امين نهوضٍ يشاركه في المُلك ولم يجد في جملة قوَّادهِ وعُمَّالهِ الَّا أُذينة ملك تدمر وامير قبائل البادية . فاقرّ لهُ بحقّ الرئاسة ودعاهُ امبراطورًا (٤ على جميع انحاء المشرق اي على الشأم والجزيرة وآسية الصغرى سوى بيتينية وبضعة نواحٍ شمالية (٢٦٤ م) (٥ . ثم أمر بضَرْب نقودٍ باسم أُذينة فضُرِبت ونُقشت عليها صورة هذا الصنديد ووراءهُ بعض الاسرى من الفرس . وكان لهذا الخبر رنَّة عظيمة عند مجمع الشيوخ الاعلى وفي الممالك الرومانية قاطبةً

وتلقَّب أُذينة مذ ذاك الحين باسم آخر يُناسب سموّ مقامهِ في عيون الشرقيين فدُعي

---

١) راجع تريبيليوس *Gall.* 3

٢) راجع تريبيليوس *Trig. Tyr.* 17 وزوناراس ١٢ : ٢٤

٣) وقد تشكَّى مؤرخو اليهود كثيرًا مما نالهم من الاذى عند محاربة أُذينة لشابور لاسيما في مدينتهم المسماة ناهدره من اعمال الجزيرة . وهي مدينة مشهورة عند اليهود بعدّة مدارس يتعلَّم فيها الربانيون علوم دياناتهم وفنون تقاليدهم (راجع Graetz: *Hist. des Juifs* IV, 432

٤) و باللغة اللاتينية : Imperator totius Orientis و باليونانية αὐτοκράτωρ

٥) راجع تريبيليوس *Gall.* 10-12

« ملك الملوك » (١ على منوال الاكاسرة واشرك ابنهُ هروديس في سياسة ممالكهِ الواسعة

صورة بعض العُمُد من جهتها الداخلية

١) راجع W. p. 601. c. 2 وتريبيليوس Gall. 10 وهنا مسئلة هـل اتخذ أُذينة اسم اوغست (Augustus) كالقياصرة الرومانيين . نجيب ان الامر ليس بمستحيل لكن لم يثبتهُ العلماء (راجع Mommsen .: V. p, 433, 2. و F. Lenormant : *La monnaie dans l'antiquité* II. p. 379, 382) هذا على انَّ اسم ملك الملوك يوازي تسمية اوغست (Augustus او Σεβαστός) الَّا ان أُذينة لم يتلقب بهِ رسميًا في عاصمتهِ وانما دُعي بذلك في النواحي لا سيما بلاد الجزيرة وبلاد العرب وليس بمستبعد انْ يكون وهيلات بن أُذينة قد حذا حذو ابيهِ الى ان شمرت الحرب عن ساقها بين زينب واوريليانس قيصر في اواخر ملك سلطانة تدمر . فبتلك الاثناء اتخذت هي ايضًا تسمية Σεβαστή

ونهض باعباء التدبير نهوضاً حسناً لتثقيف أَوَد تلك الاقاليم الشرقية التي قد طالما توالى عليها الفتق وتفاقم فيها الصَدْع (١

١٠

واوّل ما سعى أُذينة وراءهُ ازالة اضطهاد النصارى في بعض المدن كانطاكية وحمص ودمشق وقيصرية . فاطلق لكلّ طائفة من الطوائف الحرّيّة الكاملة في امور الدين واوعز الى الوثنيين ان لا يتعرّضوا للمسيحيين في قضاء فروض عبادتهم . ومنحهم علاوة على ذلك الرُخصة في بناء الكنائس حيث شاؤوا

ثمّ اصلح فساداً آخر كان قد استشرى في الشأم منذ سنين . فان بعض الجنود من الرومان وغيرهم ممّن قد تمّت مدّة خدمتهم العسكرية او هربوا منها كانوا يجتمعون فيثات فيجولون في البلاد وهم يشنّون الغارة على الاهالي ويستلبون اموالهم ويخربون منازلهم ويتلفون غلاّتهم . وكان كاليستوس الذي قُتل في حمص قد استمال في حياتهِ خلقاً كثيراً من هؤلاء المَرَدَة . فلما مُثّل باميرهم تخوّفوا العقاب فهربوا الى آسية الصغرى وتحصّنوا في جبال ايزورية وسكنوها مدّة الى ان قويت شوكتهم فولّوا عليهم رجلاً يُدعى تريبيليانس (٢ وقصدوا مقاتلة القيصر الجديد . فلم يلبث أُذينة ان وجّه اليهم احد قوّادهِ اسمهُ كوسيسوليوس وهو مصري الاصل فالتحم القتال في النواحي الشمالية وقُتِل فيهِ الطاغي . فرجع السِلْم في جميع ممالك أُذينــة

الّا انهُ قد بقي على قيصر تدمر ان يجبر بعض الوَهْنَ ويحسم بعض الداء . وهو ان الانحاء المجاورة للفرات كانت قد اصبحت على اسوإ حال من الفقر المدقع بسبب غزوات الفرس . فهجر الناس مساكنهم واراضيهم وجَلوا عن البلاد ينتظرون عود السلام . فبشّرهم أُذينة أنّ قد حان ميقات الصلح والسكينة فارجعوا الى اوطانكم ولا تخافوا على حياتكم واموالكم . فعادوا افواجاً من كل اوب مع عدّة مهاجرين من بلاد اليونان وآسية الصغرى (٣

---

١) راجع تريبيليوس *Trig. Tyr.* 14

٢) اعلم ان تريبيليوس پوليو المؤرّخ جعل هذا الباغي في جملة الثلاثين ظالماً . (راجع *Trig. Tyr.*) وكانت بلغت بهِ جسارتهُ الى ان ضرب نقوداً باسمهِ

٣) قد قدّمنا ان بلاد اليونان وآسية الصغرى كانت في قلق عظيم حين ظهور الثلاثين ظالماً . وكان ذلك سبباً لهاجرة جمّ غفير من تلك الاصقاع لاسيما من بلاد اليونان . فلمّا كانت مدينة تدمر قد طار صيتها في الآفاق لاجل ابنيتها وكنوزها وطأنينة حالها تقاطر اليها قوم غفير من

وتفرَّقوا في اقاليم الجزيرة وانتشروا على ضفَّة الفرات واسَّاهم الله على مصائبهم ونضَّر املاكهم فاضحت المدن التي قطنوا فيها من اعمر المدن واسعاها على قدم النجاح. وكانت مدينتا نصيبين وحرَّان قائمتين في وجه العدوّ تردَّان غارات الفرس والبرابرة

ولم يكتفِ أُذينة بجميع هذه الاعمال الحسنة والمشروعات الجليلة. فانَّهُ لم يكن ليحسب نفسهُ سعيدًا والدولة الرومانية مظفَّرة ما دام شابور على عرش فارس وقومهُ غير مذلَّلين. فتأهَّب لمحاربة الفرس مرَّة ثالثة وحشد جموعهُ وتوجَّه الى المدائن ليُبيد رعايا شابور قتلًا واسرًا. فبادر كسرى لمجاذبته ونشبت الحرب بظاهر المدائن وزاحف كلُّ فريق عدوَّهُ وجرت مناوشات ووقائع افضت الى نصرة جيش أُذينة. الَّا انَّهُ لا يُعرَف أفتح المدائن ام لا لانَّ قدماء المؤرّخين لم يستقصوا اخبار تلك الحرب (١

هذا وكأني بأُذينة قد قُضي عليهِ ان يموت في غير المعركة. فان هذا البطل الذي احيا مجد الرومان الاوَّلين قُتل قتلًا شنيعًا عند إيابهِ من محاربة القوط. واليك تفصيل القضية على وجه الاختصار :

بينما كان أُذينة يحارب شابور بالمدائن انتهز القوط هذه الفرصة ليقتحموا على الاقاليم الشمالية. فلمَّا علم ملك تدمر انَّهم رسوا برفأ هرقلية على شاطئ البحر الاسود ثمَّ زحفوا على بتينية وفريجية وغلاطية حتى كبادوقية بادر الى ملاقاتهم وانقضَّ عليهم كالنسر القشعم. الَّا انَّ البرابرة افلتوا من مخالبه فولَّوا مدبرين وعادوا الى هرقلية حيث كانت سفنهم فركبوها وابحروا الى بلادهم. فتأسَّف أُذينة شديد الاسف لتملّصهم من يدهِ لانَّ هؤلاء البرابرة كانوا قد خربوا عدَّة مدن وسلبوا الاسلاب وسبوا الذراريّ. بيد ان غاليانس

اليونان من فصحائهم وتجَّارهم وصنَّاعهم وعملتهم. ومن جملتهم العلَّامة لونجينوس الذي سيأتي الكلام عليهِ وقد وجَّه الى أُذينة خطبةً عنوانها « مدح أُذينة » فاستعطف بها ملك تدمر قبل ان يقدم على دخول عاصمته. والحقُّ يقال ان ولوج هؤلاء الاجانب في تدمر كان سببًا لارتقائها الى اعلى مراتب التمدُّن. الَّا ان ذلك نفسه كان ايضًا علةً لانحطاط حميَّة التدمريين وحبّهم لوطنهم. فتغلَّب عليهم روح اليونان وتكاثر بينهم اصحاب الدعارة وتداخل في امور السياسة جماعة من المتملّقين ولعلَّهم هم الذين اطرأوا زينب حتَّى طمعت فيما كانت عاقبتهُ هلاك ملكها وبوار سلطنتها

١) انَّ جيورجيوس لِسنّال المؤرّخ القسطنطيني وحدهُ اخبر انَّ أُذينة تمكَّن من فتح المدائن. والله اعلم

كان وقتئذٍ في انحاء القسطنطينية فركب اسطولهُ وتعقَّب البرابرة الى ان ادركهم وقطع دابرهم

فلمَّا انتهى الى أُذينة نبأ كَسْرة القوط فرح لذلك فرحًا شديدًا وتقدَّم الى جيشهِ بالرجوع الى المدائن . وكان أُذينة اذا طال السفر يصرف وقتهُ في الصيد والقنص كمألوف عادة ملوك المشرق في ذلك العهد . فلما كان بين هرقلية والمدائن بعدٌ شاسعٌ اخذ يروّح النفس متصيّدًا بصحبة هروديس ابنهِ ومَعَنَّيْ ابن اخيهِ خيران . وكان مَعَنَّيْ هذا يبغض أُذينة وابنهُ ويُضمِرُ لهما الشرّ مدَّعيًا انَّهما تطاولا على حقوق رئاستهِ . وكان قد استمال بعض اهل الفتن فجمعهم زمرة . واتَّفق ذات يوم ان أُذينة كان يسدّد المَرْمَى الى بعض الطريدة واذا بمعني رماها قبلهُ وكرَّر ذلك ثلاث مرَّات متعمّدًا

ولمَّا كان هذا الفعل يُعَدّ من اقبح الاهانات التي تنخس بشأن الملوك غضب أُذينة غضبًا شديدًا فعزم على معاقبة المجرم واخذ منهُ حصانهُ فكاد معني يتميَّز من الغيظ ولم يكن ليكظم حنقهُ واقبل يدمدم على عمهِ ويقذفهُ بهُجر الكلام ويتهدَّدهُ . فامر أُذينة بان يكبَّل بالقيود

ثمَّ وصلوا الى حمص وحلُّوا بها بضعة ايَّام لإراحة الجند والخيل . فانتهز أُذينة هذه الفرصة واعدَّ مأدبة فاخرة تذكارًا ليوم ميلادهِ واستدعى اليها قوَّادهُ وامراء دولتهِ . وكان هروديس يحبّ معني محبَّة صادقة ولم يتَّهمهُ فاقبل على ابيهِ يطيّب نفسهُ عن معني ويلتمس منهُ العفو . ولبَّى أُذَينة الى طلبتهِ واستحضر معني الى الوليمة . فبينا كانت الجماعة في فرح وسرور اذ قام معني وبعض عصبته فثاروا بالمأدوبين وضربوا أُذينة وهروديس فقتلوهما (١ ثم صاحوا فاجتمع اليهم اشياعهم وبايعوا معني

وقد زعم قومٌ انَّ زينب كانت تبغض هروديس لكونه ليس بولدها فشجَّعت معني على هذه الفتنة الفظيعة رجاء أن يصير الامر الى ابنها وهبلات . الَّا انَّ في هذا نظرًا . فكيف يمكن يا ترى مثل هذا الزعم مع ان زينب لم تجهل ان معني قاصد قتل زوجها وهروديس معًا ليستولي هو نفسهُ على رئاسة تدمر ؟ فهذا ما لا يقبلهُ عقل سليم كما لا يرضى بتُهَم أُخرى سيأتي عنها الكلام

---

١) وعلى ذلك قول الاعشى :

انال أُذينة عن ملكهِ واخرج عن اهلهِ ذا يزنْ

صورة قوس الانتصار في تدمر (كما كان في اواسط القرن الثامن عشر)

وخلف أذينة معني على عرش الممالك الشرقية. الّا ان اهالي حمص لم يكونوا ليحتملوا هذا الظالم فخرجوا عليه بعد أيام قلائل وقتلوه (٢٦٦ — ٢٦٧م) (١

١١

انّ ترجمة زينب كانت تستلزم تمهيدًا يعرّفنا شيئًا من احوال تدمر في زمانها ويوقفنا على اخبار سلفها لا سيّما أذينة زوجها. فيسوغ لنا الآن العود الى ذكر هذه الملكة واتمام سيرتها. ولعلّ القارئ يؤاخذنا على بسط الكلام في هذه المقدّمات مع اننا اكتفينا فيها من الكثير باليسير ومن العدّ بالنزر. فنرجو منهُ غضّ النظر عن ملل اعتراهُ لما في التفاصيل التي سبقت من واضح الفائدة لادراك اخبار زينب العجيبة

قد مرّ ان زينب كانت زوجة أذينة الثاني فولدت لهُ ثلاثة اولاد اكبرهم وَهْبلات ثمّ خَيْران ثم تيم الله. فلمّا قُتل أذينة اخذت زوجتهُ بعنان الرئاسة بالنيابة عن وهبلات بكرها(٢. وما لا ريب فيهِ انّ ملكة تدمر كانت اجدر بان تسوس الدولة الرومانية من كلّ قياصرة عهدها. وهذا قول اجمع عليهِ معظم المؤرخين حتى الذين سعوا في تنقيص شأنها وبخس حقوقها. والحقّ يقال انّ الله قد منح زينب من الصفات الملكية والمزايا السلطانية ما جعلها فريدة دهرها ويتيمة عصرها

وكنّا قدّمنا ان زينب احبّت ان تنتسب الى سميراميس وديدون وكلاوپترة تلك الملكات الشرقيّات اللواتي اشتهرنَ بجمالهنّ الفائق الّا انّها غلبتهنّ بصفةٍ اخرى تُعَدُّ

---

١) راجع زوناراس ١٢ : ٢٤ وتر يبيليوس *Trig. Tyr.* 14-16 وزوزيموس ١ وغيرهم

٢) ومن كلّ ما تقدّم من الكلام في نسب أذينة نستخلص الجدول الآتي (V. : p. 35)

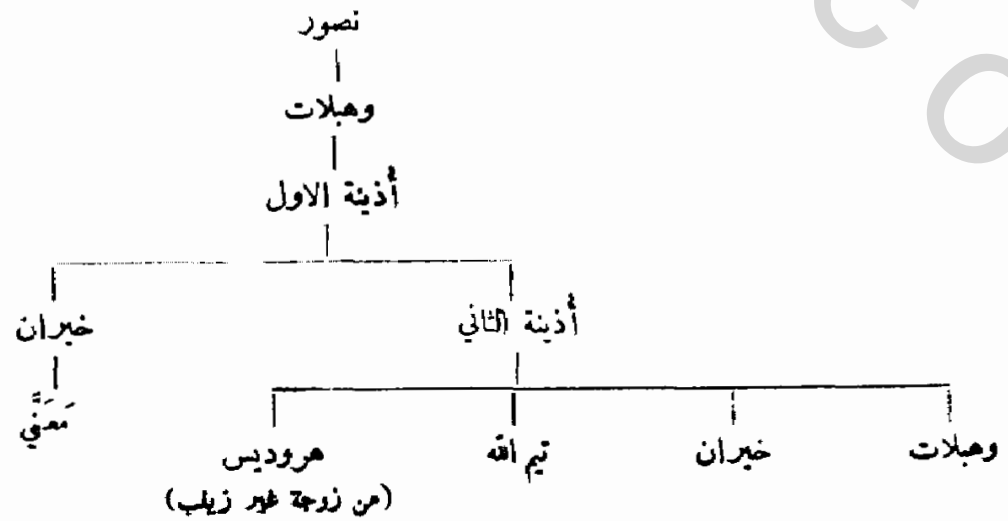

من افضل صفات النساء ألا وانَّها اتَّصفت بالعفاف والحصـانة ومارست هذه الفضيلة الحسناء ممارسة عجيبة حتى انَّ المؤرخين لم يتردّدوا في القول بانها بلغت في ذلك ما لا تبلغهُ النساء عادةً . وعلى ذلك اعتمد عرب الجاهلية فاوردوا في عفاف الزباء الاقوال التي ذكرناها في اوّل مقالتنا

واماً قولهم بانها كانت اجمل نساء عصرها فامر مقرّر اثبتهُ كتَبَة اليونان والرومان . قال تربيليوس (١ : « انَّ جمال ملكة تدمر يفوق كل وصف . فترى لون وجهها ضاربًا الى السمرة وحدقة عينيها حَلِكة كحدقة النسر ويلوح على شخصها من سمات القدرة ودلائل الحزم وأمارات الأُنس واللطف ما تندهش بهِ العقول وتروق لهُ الابصار . واماً لون اسنانها فابيض يَقَق كانَّها درر . وصوتها جهور كانهُ صوت رجلٍ »

واذا استثنيتَ جمال المرأة وعفَّة الوالدة فلا تكاد تعثر في ترجمة زينب على ما ينبئك بجنسيتها فيحقُّ فيها قول الشاعر :

ولو كان النساء كمثل هذه لفُضّلت النساء على الرجالِ

وقال زوزيموس (٢ : « ان سيرة ملكة تدمر سيرة بطلٍ لا سيرة امرأة » . ولا غرو فقد قلنا مرارًا في معرض مقالتنا ان زينب لم تزل منذ اقترنت بأُذينة تصحبهُ في ساحة الحرب ومجال الصيد كانها احد قوّادهِ . فلماً قُتِل زوجها وتبوّأت تخت السلطنة لم تنقطع عن مثل هذه الامور بل اضافت اليها ما رأَتهُ جديرًا بالملك العظيم وحريًا بالقائد الشجاع الهمام

وكانت زينب اذا ارادت السفر امتطت فرسًا فلم ترضَ بان تركب الهوادج الّا نادرًا وكنتَ تراها تستكثر من المشي فتقطع مع عساكرها المسافات الشاسعة . وربّما اجتمعت بقوّادها ورُسُل الفرس ووفود الارمن لشرب الخمر فتنادمهم . بيد انَّهُ لمّا كانت الحميا تلعب برؤوس جلسائها كانت زينب تحفظ نفسها من السكر ولم يُسمع عنها قطّ انَّها ثملت بحاقرة بنت الحان . وكانت كلّما استحضرت شيوخ المجلس واعيان البلدة للبحث عن امور المملكة تاخذ بيد ابنها وهبلات القيصر وهي متزيّنة بملابس الفخر والجلالة . وعلى كتفيها المِشمَلة القيصرية الارجوانية وعلى رأسها التاج الملكي

---

١) *Trig. Tyr.*, 14

٢) : ٤١٤

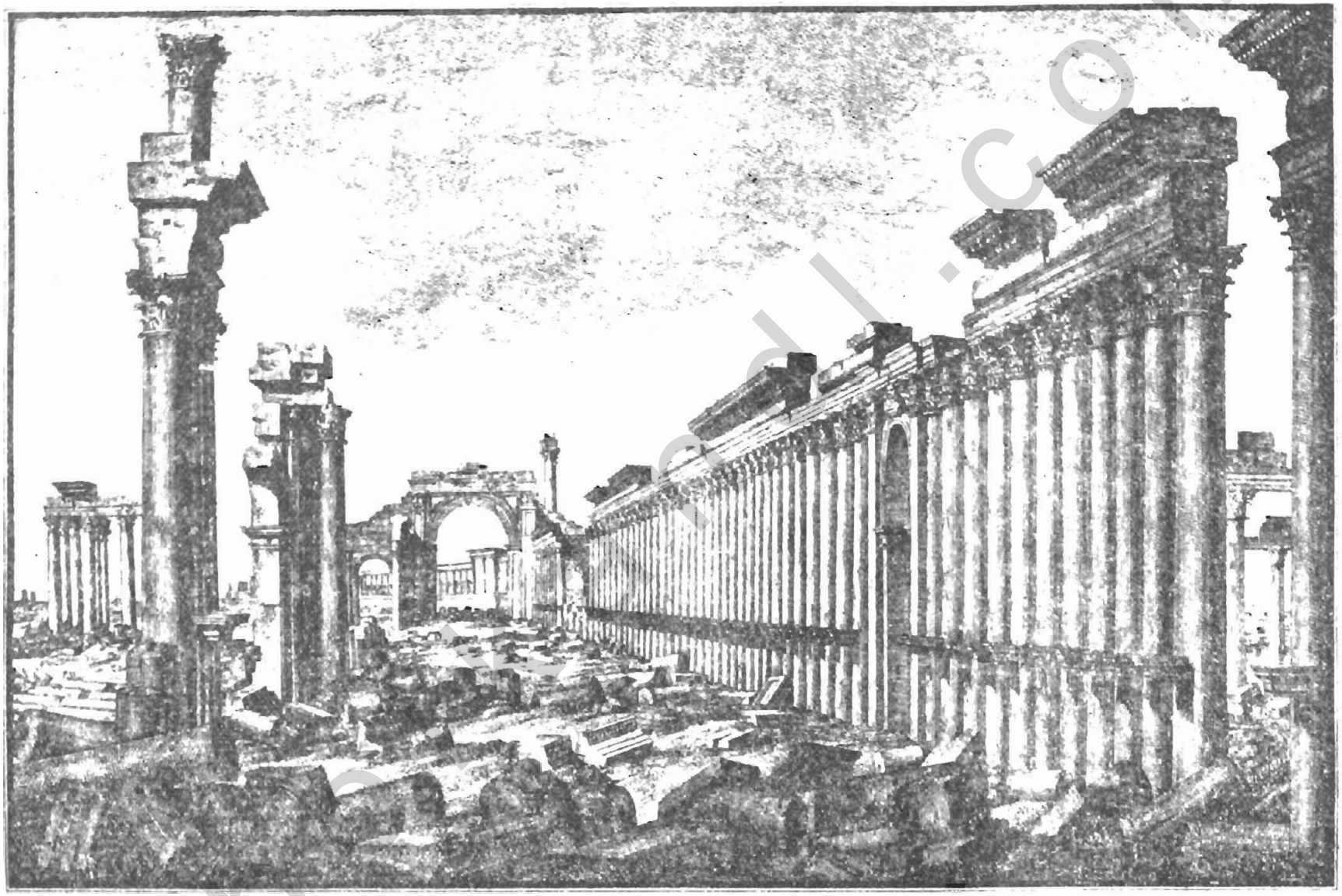

صورة قوس الانتصار وعُمُد تدمر من جهة الغرب ، كما كانت في اواسط القرن الثامن عشر)

والزمت كلَّ مَن مثـل بين يديها ان يخرَّ ساجدًا ويحنو وجههُ طاعةً لها جريًا على عادة اكاسرة الفرس . وكانت مثلهم قد جمعت في ايوانها بعض الشيوخ من الخصيـان فوكلت اليهم تدبير الامور الداخلية . واذا جالت في ساحات عاصمتهـا او دارت في ذلك الرواق المدهش الذي يفوق طولهُ كيلومترًا ونصفًا (راجع الصور السابقـة ص ٣٣ ,٧٣, ٤٠) كانت تصحبها فيئة من الفَتَيات الكريمات النسب وهي تتقدمهنَّ وتزري بجمالهن كما يزري السرو ببهاء الاشجار المجاورة لهُ في حدائق الملوك . الَّا ان سلطانة تدمر كانت في اغلب الاوقات تظهر نفسها لعيون جندها وتستعرضهم في ميادين حاضرتهـا وتمرّ امام صفوفهم الكثيفة وهي ممتطية لجوادها لابسةٌ لباس الحرب وعلى رأسها البيضة الرومانية تزينها الدرر الثمينة والجواهر النفيسة . وعلى غِلالتها اليونانية اهداب منسوجة بأسحال ارجوانية وقد جرّدت احدى ذراعيها على دأب اليونان الاقدمين . وكان كلما رآها الاهلون على تلك الحال تحرّض الجند وتشجعهم كالقائد العظيم الخبير بآداب الحرب ظنّوها إحدى إلاهاتهم فعدُّوها كميزفة او كالاٰله المريخ الذائع ذكرهما في حكايات الميثولوجية القديمة (١

بيد ان زينب لم تكتفِ بتلك الأبهة الظاهرة والجلالة الخارجية التي من شأنها ان تؤثر في مخيلة رعاياها بل زادت على ذلك اعمالًا حسنة ومآثر جليلة تدلُّ صريحًا على طول باعها في سياسة المملكة ودرايتهـا الشائقة في ضبط شؤون الدولة . وقد اتفق على هذا الوصف مؤرّخو المغرب والمشرق معًا فقالوا بصوت واحد ان قوّة السياسة عند سلطانة تدمر عظيمة فلم تعترضها هضيمة وكان للحلم في نفسها مقرٌّ ولم يكن عند الحاجة للحجرم منها مفرٌّ لانّ صرامة الملكة كانت عند اللزوم شديدة يهتال منها الفهود ويخضع لها الاسود . واما الكرم فكان لهُ في نفسها حُرمة كبرى كما في الملوك الذين ضُربت بهم الامثال . فلم تزل مع ذلك تقتصد الاموال الطائلة اقتصاد الرجل الحكيم البصير . وتجمع الكنوز النفيسة جمع القطن المستدرك

هذا ولم تُشغَل ملكة تدمر بهذه المهمّات السياسية عن تهذيب اولادها على الآداب السلطانية . واول ما اعتنت بهِ تعليمهم اللاتينية كما يليق بمن يترشّح للجلوس على سرير الملك الروماني . فكانت هذه النيّة ثابتةً في قلب زينب والامـل في الفوز بالمرمى مستقرًّا في

---

١) تريبيليوس (*Trig. Tyr.*, 29)

نفسها حتى انها اعدّت عجلةً بهيّة من ذهب وفضّة وجواهر ثمينة وقد صمّمت ان تركبها اولادها ليدخلوا فوقها عاصمة الرومان. ذلك ما ورد في تآليف لاقدمين (١ وهو برهان واضح على ما اضمرت ملكة تدمر من الطمع الشديد في الاستيلاء على الممالك القيصرية قاطبةً. فكأني بها لم تكن لترضى باقاليمها الشرقية مع سعتها ورحبها (٢ اذ كانت تفوق مساحتها على بلاد الفرس (راجع ما قلنا سابقًا عن امتداد اقاليم أُذينة الثاني). فلذلك طفق الاكاسرة يتقرّبون الى سلطانة تدمر وهم لم ينسوا ما اظهر لهم أُذينة من البسالة واذاقهم من كؤوس الهوان والهزيمة فلم يتعرّض شابور لمحاربة زينب بل عقد معها الصلح والمعاهدة

واذا اعتبرتَ شهرة مدينة تدمر في تلك الازمنة فلا تشكُّ ان حاضرة زينب اصبحت موردًا يتقاطر اليهِ كلّ امم ذلك العصر على اختلاف اجناسهم والسنتهم ومذاهبهم وصنائعهم. فكانت تدمر في عهد مُلكها بمثابة برج بابل ثانٍ من حيث اختلاط اللغات والشعوب. امّا سكّانها الاصليون فكان قسم كبير منهم ينتمي الى الامّة الآرامية الاصلية في تلك الاقطار والقسم الآخر كان يتركّب من عدّة اجانب نخصّ منهم بالذكر العرب والنبطيين والسوريين واليونان والارمن واليهود والفرس وغيرهم من شعوب اقاصي آسية الشرقية. الّا ان عدد العرب والنبطيين كان اوفر ممّن سواهم لقرب بلادهم من عاصمة زينب ومشابهة لهجتهم وعوائدهم بلسان التدمريين وآدابهم الخاصّة. والدليل الاصدق على قدَم ولوج العرب والنبطيين بينهم بعض كلمات قديمة اكتشفت في كتابات تدمر مثالها لفظة فَخذ ورُخَام وأَمجَد وزُبَيد وأُذينة وهجَر وما شاكلها ثمّ اسماء الاعلام كخير وسَعْد وسَعيد وكُهَيل وكهيلة وجميل وجميلة ومعن وأَنعم وما اشبه ذلك. وزد على هذا صورة اسماء قبائل التدمريين كبني حنفي وبني حِلّة وبني هلة وبني حمدان (٣ وغيرهم من أُسرات تدمر الشريفة كبني مَيْثاء ومتبول الذين ورد اسمهم على اقدم كتابة وجدها السيّاح في تدمر وهي كما مرّ قد نُقشت في السنة التاسعة قبل المسيح. وفي جميع تلك الاسماء دلائل واضحة على لهجة العرب ونفوذهم في حاضرة زينب

---

١) فوپيسكوس (*Aurel.* ,٣٣)

٢) راجع زوزيموس ١ و أُروزيوس ٧ : ٢٣

٣) وهي قبيلة قديمة تكرّر ذكرها في تواريخ المشرق

واما الشعوب المجاورة لتدمر فمن المتبادر ان اخصّهم قبائل العرب التائهة في بادية الشأم والجزيرة وشمالي بلاد العرب. اولهم بنو السميدع المشهورون في تواريخ تدمر وهم الاقدمون في بلاد العراق وبراري الشأم والحوران واليهم ينتمي آل أذينة الثاني زوج زينب الذي كان زعيم هذه القبيلة وقت احراز اخوهُ خيران وظيفة الشيخ الاعلى في وطنهِ. والمعلوم ان الرومان عند ما فتحوا بلاد الشام عثروا على هؤلاء العرب فاستمالوهم ووكلوا اليهم المدافعة عن حدود الاقاليم الشرقية فدعوا امراءهم « فيلارك » اي زعماء قبائل

وكان بنو السُّمَيْدَع يسكنون بادية الشام في اوائل النصرانية اذ ظهرت قبائل اليمن وتفرّقت ايدي سبإ بعد خراب سدّ مأرب وسيل العَرِم فوصل فريق منهم عُرفوا ببني غسّان الى جهات فلسطين والشأم وحلُّوا فيها وخضعوا للدولة الرومانية فاتخذهم القياصرة عُمَّالًا لهم وكانوا يدينون بالنصرانية (١

وكانت قبيلة اخرى من بني قضاعة تدعى بني سليح سبقتهم في سُكنى البلقاء فانتشروا بالبلاد في اواخر القرن الثاني للمسيح. وفي نفس هذا الوقت قدمت فرقة من بني لخم الى جنوبي فلسطين وامتدُّوا في غربي بحر لوط. وكان بقي من كلتا القبيلتين بقايا في زمن صاحبة ترجمتنا

واما بلاد العراق والجزيرة فقد ظهر فيها عدَّة قبائل من نسل قضاعة واياد بن نزار وهم الملقبون بتنوخ وامراؤهم بملوك الطوائف. وبعد ان حلُّوا في تلك البلاد ابتنوا بعض المدن كالانبار والحيرة وحَضَر وغيرها من المدن المشهورة في تواريخ الجاهلية. ومن انحاء الحجاز الى جنوبي الشأم برَز قوم أُخر من بني مضر اعني بهم بني كلب الذين قطنوا بعدئذٍ في جوار دومة الجندل

واما قبائل العنَزة فهم من مضر كبني كلب. وبعد ان حلُّوا مدّةً في الاراضي المجاورة للانبار وخيبر لم يعتموا ان دخلوا بلاد الشأم فسكنوها ولم يغادروها الى يومنا هذا فتراهم يجولون ببراري سوريّة الشماليّة وحوران وضفّة الفرات. نخص منهم بالذكر السبعة والحديديين

---

(١) راجع في مجلّة المشرق (السنة الاولى عدد ١١ و١٢) مقالة مستملحة للاب لامنس في آثار بني غسّان

والقَدْعان والموالي وهم يشنُّون الغارات على بلاد شمَّر في انحاء الجزيرة (١

ولا خفاء ان معظم هذه القبائل المعتادة لآداب الحرب وفنون الغزو قد ذعنت لملك زينب . فاستأجرت ملكة تدمر الابطال منهم واحسنت استخدامهم في جملة عساكرها لاسيما فرسانهم كما فعل أُذينة قبلها . الَّا انَّهـا استصغرت امرهم في اواخر ملكها فلذلك نقم بعضهم عليها وأبوا ان يدافعوا عن تدمر عند ما زحف اليها القيصر الذي حجب نور زينب وأزال مجدها . وسيأتي الكلام على ذلك في محلِّهِ

١٢

وفي السنة الاولى لملك زينب كنتَ ترى آسية كلها تفتخر بملكة المشرق وتتباهى بشهامتها وجمالها وفضائلها وعظم همَّتها وآدابها السلطانية (٢ . واماَّ غاليانس قيصر رومة فكان خوَّار العود متساقط الهمَّة يتقلَّص ظلّ سلطتهِ بقدر ارتفاع عزّ زينب . وكان قومهُ يجاهرون بملامتهِ ويصفونهُ بالتراخي ودعارة الاخلاق حتى اثَّرت في قلب القيصر هذه المعاتبات وخجل من فرط توانيهِ وشدَّة غفلتهِ عن شؤون الدولة . واوَّل ما فكَّر فيهِ وجزم على فعلهِ تذليل مجد زينب وتقويض قدرتها . وممَّا حرَّضهُ على ذلك انَّ سلطانة تدمر تجرَّدت لفتح بيثينية وكانت من الاقاليم المذعنـة لدولة الرومان في آسية الصغرى فخاف غاليانس على سلامة مملكتهِ ووجَّه جيشًا الى المشرق اسرَّ اليهم ان يناجزوها القتال . الَّا انَّهُ اخفى قصدهُ وتعلَّل بالانتقام من شابور وقاتلي أُذينة

ولكن لم تعتم زينب ان اكتشفت حيلة القيصر وسوء مقصدهِ فبادرت فحال الى حشد فرسانها وقوَّاسيها وركبت فيهم واغرتهم على عساكر الرومان عند مرورهم بسورية الشمالية . فلاوَّل مرَّة بعد نُصرة أُذينة لدولة الرومان تصادمت المقانب التدمرية والرومانية وتزاحفت كتائبهم بحدود فارس واحتدمت بين الصفوف الكثيفـة نار حربٍ عوان فغلبت جيوش زينب على الرومان وقُتِل قائدهم هراقليادس وانفـلُّوا مدبرين (٣ . قال

---

١) راجع برنوئيل ص ١٩ و Sprenger : Z D M G, 1863, و J. A. 1879¹, p. 215

٢) تريبيليوس (*Trig. Tyr.* 29)

٣) تريبيليوس (*Trig. Tyr.* 29 و *Gall.* 13) و Mommsen V, p. 435

شامپاني المؤرخ الفرنسي يصف نتائج هذه الحرب: « وفي تلك الواقعة انتصرت آسية على رومة . وانقطعت الروابط التي كانت تربط بينهما الى الابد »(١ . وهذا قول غاية في الصحة لانهُ بقيت في قلوب القياصرة حزازات حملتهم منذ هذا العهد على هدم سلطنة تدمر وان كانوا في بعض الاوقات يُظهرون لزينب المودَّة والمعاهدة

صورة زينب ووَهَبلات مكبرة عن مسكوكات قديمة

ولم يلبث غاليانس الَّا يسيرًا حتى قُتل (٢٦٨) فخلفهُ أُريليوس كلوديوس . قال المؤرخون ان اعضاء مجلس الشيوخ عند مبايعتهم للقيصر الجديد صاحوا بصوتٍ واحدٍ : « يا كلوديوس اغسطس نجنا من زينب وڤيكتورية » وكرَّروا ذلك سبع مرَّات (٢ . الَّا انَّ كلوديوس كان وقتئذٍ محدقًا بالاخطار يرى الممالك الرومانية عُرْضَة لأَصحاب الفتن والثورات تتساورها البرابرة من كل أوب فأغضى لمدَّةٍ طَرْفَهُ عن زينب وخرج لمحاربة قبائل الجرمانيين وكانوا عبروا نهر الطونة (Danube) في ثلثمائة وعشرين الف رجل واغاروا على بلاد ميسية وعاثوا فيها حتى لم يكد يبقى فيها اسلطة الرومان من ذكر . فردَّ كلوديوس كيدهم في نحرهم ثمَّ اسرع وارسل جيشين آخرين يتصدَّى احدهما لتريتيقوس وڤيكتورية في انحاء

---

١) De Champagny : *Les Césars du 3e Siècle*, III, p. 64-5

٢) راجع تريبيليوس (*Trig Tyr.* و *Claud.* 4)

غالية ويقطع الثاني دابرَ أُورِيُولُوس الخارجي في مدينة ميلانو

وكان هذا الملك الهُمام لم يزل في غضون هذه الحروب مترصّدًا لزينب يتوقّع الفرصة ليُصليَها نار القتال كما تشهد بذلك أَلوكةٌ كتبها الى مجلس شيوخ رومة وهو سائر لمقاتلة الخوارج قال: « ويَندَى جبيني خجلًا لدى تذكري انَّ جميع قوّاسيَّ منتظمون في سلك جيوش زينب يخدمونها » (١

ألّا ان سلطانة تدمر لم تحفل بنيّات القيصر الروماني الجديد فاستأنفت الجهد الحسن وراء صوالح بلادها ونجاح سياسة الرومان معًا كما فعل زوجهـا. ففي اواخر السنة ٢٦٩ عزمت حفيدة كلاوپترة على فتح الاقطار المصريّة فبـاشرت بهذا المشروع المهمّ باسم قياصرة رومة. وتعلّلت لاصابة المرغوب بفتنةٍ وقعت في بلاد الفراعنـة فانتهزت الفرصة لتستولي على هذه الارض التي طالما طمحت اليها بالابصار وتسترجع على زعمها ملك جدّتها كلاوپترة. فاخرجت هكذا نفسها عن كل لوم يلحقها من قبل الرومان. واليك الخبر كما ورد في تآليف الاقدمين مع التفاصيل التي استخلصناها من الكتابات التدمرية

قيل ان قائدًا اسمهُ پروباتوس (٢ خرج في تلك الاثناء على الدولة الرومانية في مصر فادّعى الملك واستولى على البلاد. فلمّا انتهى هذا الخبر الى زينب امرت قائدها الاوّل زبدا ان يبادر الى مقاومتهِ فركب زبدا في ٧٠,٠٠٠ نفر وزحف الى مصر. وعند دخوله البلاد لقي جيش المصريين وهم نحو ٥٠,٠٠٠ رجل فقـاتلهم قتالًا شديدًا كانت الغلبة فيهِ للتدمريين. ثم بعد ان استقرّ لهُ الامر ضبط احوال الاقطار المصرية وعيّن لها ٥,٠٠٠

---

١) راجع تريبيليوس (*Claud.* 7). واما القوّاسة المشار اليهم في رسالة القيصر فهم على رأي ڤوپيسقوس (*Aurel.* 11) رجال من بلاد جادور شمالي جولان وحوران. وهذا رأي صحيح اثبتهُ العلم الحديث اذ قد ورد في الكتابات المكتشفة في رومة والجزائر ان قوّاسة المشرق ونشّابتهُ لاسيما التدمريين والرهاويين منهم كانوا يخدمون الدولة الرومانية في عساكرها. وهم من اعلم الناس بفنون صناعتهم. (راجع Revue archéolog., 1859, p. 65 و V. 79)

واما عساكر زينب فكانت متألفة من الجنود الوطنيين اي التدمريين ومن متطوّعي العرب والآراميين ثم جميع الكتائب الرومانية المعسكرة في الاقاليم الشرقية

٢) وقيل پروبوس. والصواب ما ذكرنا ولعلّ المؤرخين الذين دعوهُ پروبوس خلطوا بين پروبوس القيصر الذي كان قائدًا في ذلك العهد وبين پروباتوس صاحب الفتنة التي نحن بصددها (راجع Sallet : *Die Fürst. v. Palmyra*, p. 44 و Mommsen V, p. 437)

رجل ظنًّا منهُ انّ في هذا العدد القليل كفايةً لحراسة البلاد والحذر من الفتن. ثم غادر مصر قافلًا الى تدمر. الّا ان پروباتوس لم يعتم ان جمع شتات قومهِ فنهضوا على التدمريين وأعملوا فيهم السيف وطردوهم عن الاوطان

فلمَّا علمت زينب ما لحق جندَها بمصر بادرت الى ارسال زبدا مرَّة ثانية. فركب زبدا في عسكره واسرع المسير الى الاقطار المصرية وتوغَّل في البلاد يريد إدراك الثأر من العدوّ بعد هزيمة التدمريين فلم يلبث الّا قليلًا حتى التقى الجمعان والتحمت الحرب فانتصر الخوارج على جيوش زينب. وولَّى التدمريون هاربين يقصدون الصحارى ليرجعوا الى اوطانهم. بيد ان پروباتوس كان سبقهم الى طريق برزخ السويس فاحتلَّ ربوةً بمقربة من بابل المصرية (وهي الفسطاط اي مصر العتيقة) وكمن فيها مع قومهِ ينتظر مرور زبدا

وكان في جملة ضبَّاط زينب رجل يوناني الاصل اسمهُ تيماجينس (١ وهو يعرف طرق مصر حقّ المعرفة لطول اقامتهِ في تلك الانحاء. فاخذ بقيادة جنود زبدا وشجَّعهم على مواصلة الحرب وارشدهم الى المكان الذي كمن فيهِ الخوارج. ففجئهم التدمريون بغتةً من وراء التلّ وشتَّتوا شملهم وقتلوا قائدهم. ثم رجعوا الى داخل البلاد واستولوا على مصر كلها وارسلوا الى ملكتهم مَن يعلمها بخبرهم (٢٦٩—٢٧٠)

فسُرَّت لذلك ملكة تدمر سرورًا عظيمًا وفكَّرت في وجه تأييد سلطتها في هذا الاقليم الجديد. وكان لها في الاسكندريَّة صديق من مدينة ساموسَتية الشامية يدعى فيرموس وهو رجل قوي البنية صُلب العصا قد لقَّبهُ الاهلون لذلك بلقب Cyclope وهو الجبَّار ذو العين الواحدة المشهور في قصص الوثنيّين. وكان فيرموس هذا تاجرًا متربًا قد اصاب من المال قَرْن الكلاء وهو يدّعي انهُ قادر ان يقوم بنفقات جيش كثيف بما كان يربحُهُ من مجرَّد تجارتهِ للورق والغراء (الشراس). فاحرز من ثمَّ صيتًا كبيرًا في بلاد مصر فاحتكر متجراتها برمتها حتى انَّهُ تمكَّن ذات يوم من احتكار القمح الوافر الذي كان يُبعث سنويًا الى رومة (٢. فلم يكن لزينب ان تعثر على رجل اعظم قدرة واقوى صداقة من فيرموس فولَّتهُ تدبير القطر المصري

١) قال زوزيموس ان هذا الرجل هو الذي حرَّض زينب على فتح مصر وكان احد متملقيها

٢) قد ذهب العلَّامة رينو (J. A. 1863¹, p. 387) الى ان فيرموس والي مصر وصديق زينب هو الذي دوَّن الكتاب المشهور في العلوم الجغرافية المعروف باسم Périple de la mer Erythrée.

١٣

كانت سلطة ملكة تدمر قد امتدّت امتدادًا عظيماً بعد ان فتحت جيوشها البلاد المصريّة فأضحت حدود ممالك زينب تنتهي جنوباً الى ضفّة النيل وشمالًا الى اقاصي آسية الصغرى وتحدُّها غرباً سواحل البحر المتوسط وشرقاً نهرا الفرات ودجلة (١ . وممّا رقّى اسمها الى اوج المجد والعزّ انّها انفذت الرعب القوي في قلوب الملوك الشرقيين على اختلاف طبقاتهم واثبتت لها هيبــةً شديدة في انفسهم فلم يتجاسر احد منهم ان يعادي سلطانة تدمر او يمنعها عن فتوحاتها . وهذا قول ليس فيهِ ادنى مبــالغة تشهد على صحّتهِ الاخبار القديمة لاسيما رسالة بعث بها اوريليانس قيصر الى مجمع الشيوخ حين باشر محاربة التدمريين في اواخر ملك زينب (٢

وكانت زينب عالية الهمّة شديدة السياسة قد نهضت باعباء التــدبير نهوض حزماء الملوك وفضلائهم فاخذت رعيّتها العظيمة ترتع في مراتع النجاح ومجالج السلام . واوّل ما اعتنت بهِ سلطانة تدمر تزيين عاصمتها بما لا مزيد عليهِ من البهاء والجاه . فاضافت الى الآثار التي ابقاها سلفها من الملوك ابنيةً جليلة وحصوناً عجيبة تشهد على كبر نفسها وتوقُّد قريحتها . وهذا لا يناقض ما قد مرَّ بنا ان معظم الهياكل والابنية المدهشة التي يزورها اليوم المسافرون لا يجوز نسبتها الى زينب برمّتها . لانّ لملكة تدمر من هذه الآثار نصيباً خلّد اسمهــا في الخافقين . كيف لا وتسمع اهالي الشام يعزون اليها كل ما فاتهم اصلهُ من الابنية القديمة . ومؤرخو العرب انفسهم قد حفظوا شيئاً من ذكر هذه الاعمال الحسنة اذ اجمعوا القول بانها ابتنت قصرين على ضفّة الفرات

---

١) راجع زوزيموس ١ : ٤٤ و ٥١ . وزوناراس ١٢ : ٢٧ . وتريبيليوس (كلوديوس ٢١) . اعلم ان المؤرّخين الاقدمين قد اختلفوا بينهم بعض الاختلاف في وصف حروب زينب ونتائجها المادية . فاخذنا من رواياتهم ما يوافق الكتابات التدمرية وغيرها من الآثار القديمــة المكتشفــة حديثاً . (راجع Addison : *Damascus and Palmyra*, II p. 266 و V : p 33.) قبل ان سلطة زينب لم تثبت في شمالي مصر . وعلى كل حال لا ريب ان اوريليانس الذي بويع لهُ بخلافة القياصرة في تلك الاثناء (٢٧٠ م) لم يعتم ان اقرّ لزينب بحق رئاستها على البلاد المصرية قاطبةً فضرب في الاسكندرية نقوداً باسم وهبلات ابنها شهادة على هذا الاقرار

٢) راجع رسالة اوريليانس الى مجمع الشيوخ كما دوّنها المؤرّخ تريبيليوس *Trig. Tyr.* 29

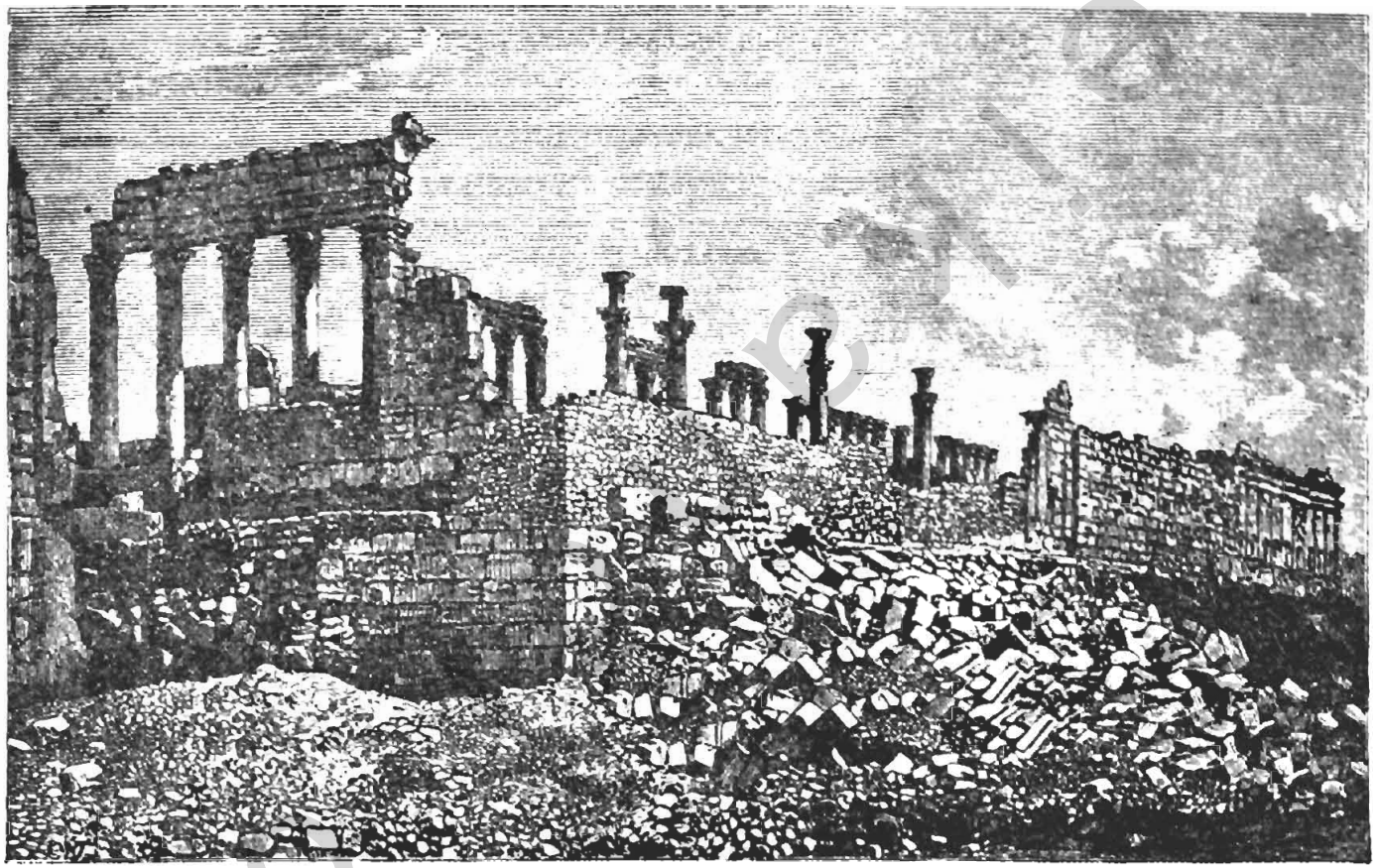

صورة هيكل الشمس في تدمر من جهة الشرق (عن صورة شمسية)

فاذا جرَّدنا رواياتهم من الخرافات التي رويناها عنهم في اوّل مقالتنا لا نجد في كلامهم الّا ما يوافق الدلائل التاريخية الراهنة. فان زينب قد شيَّدت على ضفّة الفرات ليس قصرًا فقط بل مدينـــة حصينة اطلقت عليها اسمها اليوناني فدعتها زينوبية. وكانت قد قصدت من بنائها تذليل مدينـــة ڤولوغيسيّة (Vologesias) المعروفة اليوم باسم كفيل التي شيَّدها احد ملوك بني ارشك في اوائل النصرانية لاستجلاب الارفاق والبضائع من اقاصي الهند والشأم وآسية الصغرى (١ . وكانت مدينة زينوبية مشهورة عنـــد العرب ايّام الجاهلية. بيد ان الاعصار لم تُبقِ للخلف من آثارها الّا بعض الاخربة تُعرف اليوم بزليبية يزورها سيَّاحٌ قليلون يتوجهون الى الفرات من تدمر او من السمخة(٢

ولم تكن زينب لتقتصر على تزيين حاضرتها وبناء بعض الحصون في البلاد المجاورة لها بل افرغت كنانة مجهودها على سعادة جميع رعاياها وخير الاقاليم المذعنة لملكها دون استثناء. واقوى دليل على ذلك عزمها على تعمير البراري الممتدة من تدمر الى دمشق وبعلبك. فترى بالقرب من عين الفيجة ولبوءة بقـايا قنيٍ عظيمة واخربة اخرى لم يكن الغرض من بنائها سوى ما قلنا (٣ . الّا ان ملكة تدمر لم تدم على عرش المشرق مدّة كافية لتتميم هذا العمل الجليل الفائدة فاخنى الدهر بكلكله على هذه الآثار وطمس محاسنها

واماّ اعتناؤها بحسن حال الطرق وافتتاح الشوارع الجديدة الرحبة فامرٌ لا مراء فيه. فقد اكتشفت علماء العاديّات عمودين نُصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلًا ميلًا عليهما

---

١) ورد اسم هذه المدينة في الكتابات التدمرية على صورة (الحسيا) وهي المدينة التي سماها الفرس وعرب الجاهلية بَلَاشْكَرد او بَلَاشْكَر او ولاشِجَرد. وقد ارتأى المستشرق بلو (Blau) (في المجلة Z D M G, 1873, p. 337) انها واقعة في مكانٍ كان يُدعى في القرون المتوسطة (وَلَجة). الّا اننا نفضل رأي العلامة نولدك (Z D M G : 1874, p. 93) الذي قال ان بلاشكرد انما هي مدينة (أَلَيْس) الوارد ذكرها مرارًا في تاريخ الطبري. وعلى كل حال فانّ للمدينة القديمة آثارًا باقية في قرية كفيل الحالية على نهر النهدية وموقعها جنوبي بابل على مسافة اربع ساعات منها (راجع خارطتنا)

٢) وبازاء زليبية الحالية على ضفة الفرات اليمنى توجد اخربة اخرى باسم حَلَبيَّة ولعلّها هي القصر الثاني الذي نسب العرب بناءهُ الى زينب

٣) (راجع ص ٥٠)

اسم زينب واسم ابنها وهبلات . واوّل هذين العمودين قريب من الجبيل والجسر الواقع على وادي الفدار والثاني عند برج الريحان شمالي الجبيل (١

١٤

وفوق كل ذلك قد ابقت سلطانة تدمر آثارًا اعلى شأنًا واقامت سوق الآداب في عصر غلب عليهِ كسادها . ولو عاش العقلاء الذين ضُربت بهم الامثال وعُدمت لهم النظراء والامثال لتعلّموا منها غوامض الحكمة وتلقّفوا مكارم الاخلاق . فان زينب كانت عاقلة لبيبة قد نشأت في الآداب وتخرجت في العلوم فكانت تعرف علاوةً على لغتها الوطنية اي التدمريّة كلاً من اللغات المصريّة واليونانية واللاتينية (٢ . وكانت قد استقصت مطالعة اخبار الاوّلين وتواريخ الاقدمين وتبحّرت في تراجم مشاهير ملوك اليونان كذي القرنين وسلاطين رومة العظام . ويُخبر عنها انّها بعد التأمل والنظر الطويل في سير الملوك ألّفت بخطّ يدها كتابًا اختصرت فيهِ تواريخ الامم الشرقية . ومما تسنّمت بهِ ذرى الشهامة وشقّت غبار مَنْ سلفها على عرش تدمر انّها صرفت جلّ اهتمامها الى حشد بعض العلماء والبلغاء والنحاة وغيرهم من فضلاء عصرها فجعلتهم أسرى فضلها واجزلت لهم الصلات والعطايا (٣

واوّل من نخصُّ منهم بالذكر كَيكلِراتيس الصوري . قال قوپيسكوس المؤرّخ (*Aurel.* 4) : « انّهُ كان أعلم الكتبة ومتقدّم المؤرّخين اليونانيين في زمانهِ » فألّف بعد خراب تدمر ترجمة أورليانس قيصر الذي كسر صولجان زينب . ومنهم لوپركوس البيروتي اللُّغوي والفيلسوف كان مولدهُ في بيروت ايّام غاليانس قيصر وألّف على عهد زينب التآليف العديدة في النحو والادب والتاريخ والفلسفة (٤ . ومنهم بَوْسانياس الدمشقي الذي

---

١) راجع W : 2611 و V : p. 31 و C I G, 4507b

٢) قيل ان زينب تأدبت في الاسكندرية وان امها كانت مصرية الاصل فلذلك فقهت اللغتين المصرية واليونانية . (راجع Wright : *op. c.*, p. 131) ولعلَّ ذلك حملها على ان تنتسب الى كلاوپترة المصرية . ومع كل ما بذلت زينب من الجهد في تنشيط رعاياها على اقتباس آداب اليونانيين وعلومهم فلا نظنّ انّها فازت بالمرغوب لان لُنجينوس الذي سيأتي ذكرهُ قد شكا لصديقهِ پُرفيريوس قلّة النسّاخ اليونانيين في تدمر (راجع پرفيريوس *Vita Plot.* 19)

٣) راجع تريبيليوس (*Trig. Tyr.* 29)

٤) راجع سويداس في قاموسه التاريخي . قد ألّف لوپركوس الكتب الآتية : ١ً كتاب

دعاهُ مَلالا « افضل المؤرّخين واعلمهم » (١ . ومنهم ايضاً نِيكُوماخوس وُلد في احدى مدن سوريّة وقد اشتهر في العلوم التاريخية . قيل انهُ الّف ايضاً ترجمة اوريليانس قيصر . الّا انَّ ذلك ليس بامر ثابت وعلى كل حال فممَّا لا مرية فيهِ ان هذا العالم قد انتقل الى تدمر فاستقرّ فيها مدّةً . ولنا في ترجمته بعض التفاصيل سنوردها في موضعها (٢

على ان اشهر الكتبة الذين قد حلّت ايادي زينب عليهم انما هو كاسيوس ديونيسيوس لُنجينوس الفيلسوف الذي طار ذكرهُ في الآفاق وأُشير اليهِ بالبنان لدقّة انتقاده وصفاتهِ النادرة وآدابه الحسنة ومعارفه العديدة فلقَّبهُ معاصروهُ لذلك بالمكتبة الحيَّة وكنز العلوم . قال اوناپيوس في كتاب تراجم الفلاسفة (الفصل الثاني) : « وكان لنجينوس ذا عقلٍ نيّر وذوق سليم يميط الحجاب عن محاسن التآليف ويهتك ستر سيئاتها . قيل انهُ عُهد اليهِ انتقاد كتب الاقدمين ففاز على اقرانهِ بالسهم المعلّى في هذا السبيل المتوعّر »

كانت ولادة لنجينوس في مدينة حمص وفقاً لرأي جمهور المؤرّخين ولا يُرينا شكوك البعض في صحَّة ذلك اذ استندوا الى ما جاء في تاريخ ڤوپيسكوس بان لنجينوس لم يعرف السريانية وهي لغة اهل حمص في ذلك العهد . بيد انَّ هذا الكاتب لم ينكر اصل لنجينوس وانَّما تعجَّب من كونهِ قد جهل لسانهُ الوطني . وزد على ذلك برهاناً آخر وهو ان افرونتونيدة والدة لنجينوس كانت من اهالي حمص وكذلك اخوها افرنتون الذي علَّم الخطابة في اثينة فعُرف بالحمصي (٣ . ومع ذلك فلا ننكر ان لنجينوس ربَّما غادر بلاد

النظم ٢ً كتاب الطاووس ٣ً كتاب السرطان البحري ٤ً كتاب الديك ردًّا على افلاطون ٥ً كتاب بناء ارسينوه (المدينة المصرية القديمة المعروفة بشودو او مدينة التمساح) ٦ً كتاب الآداب الابُنية ٧ً كتاب صناعة النحو ٨ً كتاب التوليد في ثلاثة عشر فصلاً . وجميع هذه التآليف قد استولت عليها يد الضياع

١) راجع Const. Porphyr. : *Them.* I و Malala : *Chron.* p. 37, 119, 248 و Steph. Byz., ... Δῶρος

٢) راجع ڤوپيسكوس ٢٧ . والمظنون ان نيكوماخوس هذا هو الذي زوَّق ترجمة اپولونيوس الطياني وتصرَّف في نسخة فيلستراتوس (راجع سيدونيوس ٨ : الرسالة الثالثة و Vossius : *Hist. Græc.* II, 16) . ويجوز ان نضيف الى جميع هولاء الكتبة ثيوكليوس اوثيون الساقزي (اي من جزيرة Chio) الذي ابقى لنا كتيبه من معاصريه سيرة اوريليانس

٣) راجع سويداس لنجينوس

الشام منذ نعومة اظفاره فاصبح من ثمّ قد نسي لغتهُ الاصلية اي السريانية. فلمّا ترعرع همّ بتلقُّن العلوم فتوجه الى قيصرية فلسطين حيث درس الفلسفة على اوريجانوس العالم الشهير. ثم سار الى بلاد مصر فاخذ عن مشاهير علمائها الوثنيين كأمُونيوس سقّاس وبلوتينوس. ثم رحل الى اثينة وتقلّد فيها تدريس الفلسفة. وفي غضون ذلك ألّف الكتب العديدة التي يذكرها المؤرّخون(١. غير انّهُ لسوء الحظ فُقدت في كرور الايّام اللهمّ الّا كتاب واحد فَرْد يُعدّ من افضل تصانيف الاقدمين واشهرها شرقًا وغربًا اعني بهِ كتاب الايغال (Le Sublime) موضوعهُ بيان المعاني المُدرِكة الغايةَ القصوى من البلاغة (٢

فلمّا وصل لنجينوس الى تدمر استقبلتهُ زينب استقبالًا لائقًا بمقامهِ الرفيع بين علماء عصرهِ وجعلتهُ من ندمائها وكانت تُرتاح الى مشورتهِ في الامور الادبية وتطلب رأيهُ في المباحث الفلسفية والسياسية. والحقُّ يقال ان لنجينوس كان اجدر بمثل هذا الاكرام ممّن سواهُ بسموّ عقلهِ وعزّة نفسهِ. فانهُ ليس فقط لم يبغض الديانة المسيحية كما فعل صديقهُ پرفيريوس بل اقرَّ لها بالفضل واجلّها اجلالًا عظيمًا. قال في كتاب الايغال يصف الاسفار الكريمة لاسيما التوراة: « ان هُميروس الشاعر بذل وسعهُ ومجهودهُ ليجعل البشر آلهةً والآلهةَ بشرًا. . . . واماّ موسى الكليم صاحب الشريعة العبرانية فلا اراهُ انسانًا بسيطًا بل رجلًا عجيبًا

---

١) قال پروفيريوس في ترجمة پلوتينوس ان لنجينوس الف اربعة تآليف: كتاب الاصول وكتاب حبّ الآثار القديمة وكتاب الغايات وكتاب الاختبار. وقال سويداس انهُ ابقى كتبًا كثيرة في فنون الادب. وقال اوناپيوس في ترجمة پرفيريوس ان الاقدمين قد اخذوا عنهُ عدّة مقالات مختلفة المواضيع

٢) اعلم ان بعض العلماء من المحدثين قد انكروا نسبة هذا التاليف الجليل الى لنجينوس معتمدين على برهانين: اولها ان اسم المؤلف لا يظهر صريحًا في النسخ القديمة. والثاني ان القدماء من الكتبة والمؤرّخين لم يذكروا هذه النسبة الّا نادرًا. وبناء على ذلك فقد زعم البعض ان كتاب الايغال انما هو تصنيف ديونيسيوس الهاليكرناسي. وهذا زعم لا سند لهُ لان اساليب الانشاء في التأليف المذكور غير اساليب ديونيسيوس في باقي تصانيفهِ. وادّعى آخرون ان كتاب الايغال ينتمي الى پلوترخوس. وهذا قول لا يخلو من ظاهر الصحة لان ما اودعهُ پلوترخوس من التآليف يشبه شبهًا كبيرًا الكتاب الذي نحن بصددهِ من حيث الانشاء. (راجع Jules Simon : *Hist. de l'École d'Alexandrie*, II p. 53). الّا ان جميع براهينهم واهية لا نظنُّها كافية للغرض المقصود. وعندنا ان لنجينوس هو حقيقةً مؤلف هذا الكتاب المشهور الذي قد فتن ملكة تدمر ونبّه افكارها الى المباحث الادبية الفائقة والامور الدينية العالية

انار الله عقلهُ اذ قد تصوّر عظمتهُ تعالى وقدرتهُ تصوّرًا لا مثيل لهُ » (كتاب الايغال الفصل السابع)

١٥

هذا ومن المقرَّر ان زينب لم تكن لتردع نديمها وناصحها وكاتبها الحكيم عن رأيه في الشريعة الالهية ولعلّها هي التي القت في قلب لنجينوس محبَّة الكتاب الكريم وقد ارتأى القديس اثناسيوس (١ انَّ ملكة تدمر كانت تدين باليهوديَّة . وقول القديس المذكور جدير بالاعتبار فان عدد اليهود كان قد كثر في عاصمة زينب منذ ابتداء النصرانية لاسيما بعد ان خرَّب تيتوس قيصر اورشليم سنة ٧٠ بعد المسيح . ففي تلك الاثناء هجر جمّ غفير من اليهود اوطانهم وتفرَّقوا في عدَّة مدن اجنبية من المدن المذعنة لدولة الرومان فاقاموا فيها مستعمرات لم يمرّ عليها الَّا القليل من الزمان حتى اخذت تنمي وتنتشر لاسيما في الاقاليم الشرقية (٢ . وقد اتت الكتابات المكتشفة في تدمر مؤيّدةً لذلك تأييدًا لا مردَّ عليهِ اذ قد ورد فيها اسماء عديدة عبرانية بالخط التدمري لا بل بالخط العبراني عينهِ (٣ . قال بعض المؤرّخين : ان عدد اليهود في ايَّام زينب قد بلغ نصف جملة اهالي تدمر . وهذا قول لا يخلو من المبالغة لان العرب واليونان وغيرهم من الشعوب المجاورة لتدمر لم يكن عددهم اقلَّ من عدد اليهود في حاضرة زينب . وعلى كل حال فلا يُنكر انَّ اليهود قد ألَّفوا في تدمر مستعمرة معتبرة وهم يقضون فيها فروض ديانتهم بكل حرّية كسائر السكَّان على اختلاف اديانهم ومللهم

---

١) راجع القديس اثناسيوس *Epist: ad Solit.* وقد جاء مثل هذا القول في تاريخ مختصر الدول لابن العبري (طبعة الاب صالحاني ص ١٢٩) . راجع ايضاً Milman : *History of the Jews*: III, p. 175

٢) راجع Derenbourg : *Essai sur* و Lévy : *Beitrag. zur Gesch. d. Jud.* 294 *l'Hist. et la Géogr. de la Palest.*, I p. 22, 224 . وقد اخبر في القرون المتوسطة الربانيّ بنيامين التودلي انهُ وجد في تدمر سنة ١١٧٢ مستعمرة من اليهود يبلغ عددهم ٢٠٠٠ نفس . (راجع El. Reclus : *Géog.* IX, p. 792)

٣) (راجع V : 13, 65 و W : 2619)

ولا نظنُّ ان زينب التي قد رزقها البارئ من جودة العقل ما جعلها باقعة زمانها وفريدة دهرها كانت لترضى بديانة الوثنيين ومذاهبهم الباطلة وخرافاتهم الشنيعة وكما انَّها استنكفت من كفر الزنادقة والقائلين بعدم وجود الله تعالى. فكانت من ثمَّ مستعدَّة لقبول الدين الموسوي او على الاقلّ لتعلُّم الشريعة العبرانية التي قد انتشرت انتشارًا عظيماً في المدن الشرقية منذ ظهور الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية

اذا ما اعتمدنا على ما تقدّم من كلام القديس اثناسيوس وعوَّلنا على الادلَّة التاريخية المشفوعة به فسلّمنا ان زينب كانت على الاقلّ مستعدَّةً للتديُّن بدين اليهود تُرى أيجوز القول بأنَّها تهوَّدت حقيقةً ومارست فرائض هذه الديانة ما دامت على عرش التدمريين ؟ نجيب كلاَّ فان الاكتشافات الحديثة تدحض هذا الزعم وتبطلهُ. كيف لا وترى في تدمر حتى في ايَّامنا هذه عمودًا من اعمدة الرواق الاكبر مكتوبًا عليهِ باليونانية والتدمرية ان القائدين زبدا وزباي قد نصبا في ذلك المكان تمثالاً لملكتهما الجليلة كما فعلا لزوجها أذينة الثاني (١ ومن المقرّر ان ديانة اليهود تحرّم مثل هذه العادة. فكفى بذلك برهانًا على انَّ ملكة تدمر لم تتمذهب بمذهب اليهود كما انَّها لم تنتسب الى شيع النصارى المتهوّدين (chrétiens judaïsants) (٢ . وممَّا يؤيّد صحة رأينا ان زينب التي ما برحت تفتخر بنسبتها الى اشهر ملكات المشرق لم تكن لو تدَّينت بدين اليهود لتُهمِل الانتساب الى باني تدمر سليمان الملك. وكان ذكر سليمان لم يبرح بعدُ شائعًا بين التدمريين والعرب والآراميين واليهود القاطنين بعاصمتها او المتجوّلين في بادية الشام

ولسائل ان يسأل فايَّ ديانة اذًا اعتنقت سلطانة تدمر وايَّ ملَّة انتحلت. نقول على وجه الاجمال انَّ في الامر غموضًا. وللمؤرّخين في ذلك آراء مختلفة مرجعها الى رأيين فان البعض يفتون بنصرانية زينب والبعض الآخرون وهم الاكثرون يزعمون انَّها كانت من جملة الذين يعتقدون وجود الله تعالى مع انكارهم الوحي. وهو مذهب التوحيد (déisme). امَّا نحن فنرجّح رأي الاوّلين لانهُ اقرب الى الصواب ولنا في المسألة بعض

---

١) V., n° 29 ٢) وهذا رأي المورخين تاودوريتوس ونيقيفور . (Niceph., *Hist.* VI, 47 ; Theodoret: *Hist.* II)

الشواهد التاريخية نسردها لمزيد الايضاح. الّا أنّنا لا نظنّ ان زينب صارت مسيحية محضة قبل خراب حاضرتها وجلائها عن الاوطان. فنقول:

ان الكتابات التدمرية التي قرأها المركيز دي ڤوكويه كثيرًا ما تُفتتَح ببعض الفِقَر الدينية لاسيما ما ينتمي منها الى القرن الثاني (١ وهي تشبه صورة الصلوات المسيحية شبهًا عجيبًا مثالها: نقدّم هذا المذبح او هذا القبر «لمن اسمهُ مبارك الى الابد الرؤوف الرحوم». قال العلّامة المومأ اليهِ: كاني بهذه الكلمات تذكر الصلاة النصرانية المعروفة: «ليكن اسم الربّ مباركًا منذ الآن الى الابد». ولا ننكر ان بعض هذه الابتهالات قد كتبتها يد الوثنيين او اليهود الّا انّ ذلك لا ينفي كون بعضها من وَضع المسيحيين ايضًا (٢

ثم اذا اعتبرتَ انّ في جملة من الكتابات التي ادرجها المركيز المذكور في مجموعهِ صورة اوّل حرف اسم المسيح باليونانية (X) فلا تشكّ انّ المسيحيين كانوا دخلوا تدمر منذ بلجت على العالم شمس النصرانية (٣

هذا ولنا برهان آخر مقنع في انتشار الدين المسيحي في تدمر منذ قرون النصرانية

١) راجع V. : n^{os} 75, 76, 78 سنة ١٢٥ و ١٢٩ و ١٣٥ ومرجع عبادة التدمريين الوثنيين الى الهين اي بَل (او بَعْل) وبرْجبول ويقال لها «مَلَكْبَل وعَجلبول» يريدون بها الشمس والقمر فيعبدونها كالهين ذكر وانثى. ومن المعلوم انّ هيكل تدمر الاعظم شُيّد لعبادة الشمس (راجع V. : n^{os} 93, 128). وهذا موضوع واسع يصدُّنا ضيق المكان عن الاسترسال فيهِ

٢) ولا يبطل حجّتنا ما قالهُ المستشرق الشهير كلرمون غانو (في المجلّد الاوّل من مجموعه العاديّات الشرقية) «بانّ مثل هذه العبارات وثنيّةٌ زاعمًا بان الوثنيين قديمًا لم يذكروا في كتاباتهم اسماء آلهتهم ليكتموا عن الامم الاجانب ما يأملونهُ من معبوداتهم من النعم او غيرةً منهم عليها» لانّ العبارات الوثنيّة في الغالب لا تخلو ممّا يُشعر بعبادة الاصنام بخلاف العبارات التي ذكرناها وهي متنزّهة عن ذلك ومعانيها سامية

٣) قد حاول المسيو شرودر ان يبرهن انّ مدلول هذا الحرف غير ما قلنا وهو يعتمد على كتابة تدمرية تاريخها السنة التاسعة للمسيح ورد فيها كمثل هذه العلامة. بيد ان بين الكتابتين بونًا. لان الحجارة التي اكتشفها دي ڤوكويه قد حُفرت عليها صورة هذا الحرف مرّتين وفي موضع غير موضع الكتابة التي ذكرها المسيو شرودر في مقالتهِ (Sitzunb. d. Preus. Akad. d. Wiss., 1884, p. 21). وعلاوة على ذلك انّ العلماء يسلّمون بان المسيحيين قد اتخذوا للدلالة على شعائر دينهم بعض اشارات وعلامات كان سبقهم اليها الوثنيّون فاستعملوها في معنى آخر. فلا نظنُّ اذًا انّ حجّة المسيو شرودر كافية لدحض رأي المركيز دي ڤوكويه

الاولى نأخذهُ مما سبق لنا عن تجارة هذه المدينة وسَعة معاملاتها مع بقية حواضر الشرق فنقول: انَّ تدمر كانت مجازًا لكل القوافل في ذهابها وايابهـا ونقطة مركزيّة بين مدن الفرات والاردن وآسية الصغرى. والحال انَّ النصرانية كانت اشرقت على اكثر هذه المدن حتى اقصاها وابعدها منذ مطلع الدين النصرانيّ. فكم بالاحرى يتحتَّم القول انَّها انارت اهل تدمر باشعَّتها الساطعة

فقولنا انّ تدمر كانت مركزًا لكل قوافل الشرق لا حاجة لبيانهِ اذ يتَّضح صِدقهُ لدى القارئ من مجرَّد النظر الى خارتتنا (الواردة في آخر هذه النبذة)

امَّا قولنا انَّ النصرانية كانت نفذت في كثير من مدن المشرق فهو امر واقعيّ لا يستطيع انكارَهُ الَّا مُكابر ولحقّ مُدابر. فان تصفَّحنا اوّل تاريخ النصرانية المدوّن في كتاب اعمال الرُّسل نجد هذا الدين منتشرًا منذ نشأتهِ في كل انحاء فلسطين (١ وساحل بحر الروم (٢ وفي انطاكية الكبرى حيث دُعي النصارى باسم المسيحيين (٣ ولم يزل فيها ناميًا حتى كان عدد النصارى ينيف في ايَّام تنصُّر قسطنطين الملك على مئة الف (٤. وكذا قل عن دمشق الشام وذلك بعد صعود المسيح بسنين قليلة (٥. واذا اعتبرنا مدينة الرها مع بُعدها عن مَهد النصرانية في اورشليم وجدنا اهلها مذعنين لسُنن المسيح منذ القرن الاوَّل وذلك ممَّا اقرّ بهِ العلماء فضلًا عمَّا جاء في التقليد. قال العلاَّمة دوقال في مقدّمة كتابهِ في نحو اللغة السريانية: «ان مدينة الرها كان الله قد حباها من العمران والتقدُّم ما جعلهـا مستعدَّة احسن استعداد لقبول الديانة الجديدة اي النصرانية فدانت لها هي وملوكها منذ القرن الاول وهذا من اثبت التقاليد (٦ ». وعلى كلّ حال فانّ النصرانيـة انتشرت في

---

١) راجع كتاب الاعمال ٨: ١,٥ – ١٤,٤٠ و ٩: ٢١

٢) اعمال الرسل ٨: ٤٠ و ١١: ١٩ الخ ٣) اعمال ١١: ٢٢ – ٢٦

٤) راجع دي ڤوكويه Syrie Centrale, p. 14 ٥) راجع الفصل التاسع من سفر الاعمال

٦) Gram. Syriaq. 1881, p. VI – هذا واننّا نعلم ان الكاتب نفسهُ ارتأى خلاف هذا الرأي في تاريخ مدينة الرها (J. A. 1891[2]) الَّا ان حججهُ غير مقنعة تنقض قول سواد المؤرخين الاقدمين. ولا يظنَّنَّ القارئ ان مستندنا في زعمنا هذا الى قصَّة الملك الابجر ورسائلهِ الى المسيح التي شاع امرها في المشرق. فانَّ لدينا غير ذلك من الادلة مهما قيل عن صدق هذه الرواية او كذبها. وكذلك اننّا نضرب صفحًا عن تعيين عدد النصارى في مدينـة الرها أكان في القرن الاول للمسيح وافرًا او قليلًا

القرن الثاني في الرها انتشارا عظيماً كما اثبت ذلك العلاّمة ساخَوْ(١ في معرض كلامهِ على اقدم كتابة وُجدت في الرُّها. وقد وافقهُ على قولهِ الكاتب الشهير رينان الذي يعلم قرّاءَنا ما كان يضمرهُ في قلبهِ من الحزازة والضغن للديانة المسيحية فقال: « انَّ ملوك الرُّها قد جاهروا بمعتقَد النصارى ودانوا لهُ رسميًّا قبل ختام القرن الثاني (٢» . امَّا انتشار النصرانية في آسية الصغرى منذ بدء النصرانية فهو مقرّر في كتاب الاعمال حيث يصف صاحبهُ اسفار القديس بولس وتبشيرهُ في عامّة تلك البلاد (٣

فان كان نفوذ النصرانية وعلوّ شأنها ممَّا لا يُنكر في كل الانحاء السابق ذكرها فانَّهُ لمن المستحيل ان لا تكون تدمر نالت من خيرات الدّين النصراني نصيباً طيّبًا منذ بزوغ انوار هذا الدين وذلك كما قلنا لاجل موقعها كمركز اوّل لجميع القوافل . فكيف يرضى العقل بانَّ اقاصي بلاد الشرق حظيت بما لم تحظَ بهِ تدمر وانَّها لم تستقِ من ينابيع النصرانية العَذْبة التي أَرْوت تلك البلاد الشاسعة لاسيما بعد خراب اورشليم (سنة ٧٠ ب م) اذ تفرّقت نصارى فلسطين في كلّ المدن . وعلى ذلك قول المسيو غوليوم في مجلّة العالمين « انّ النصرانية نفذت مدينة تدمر باعظم سهولة حتى انَّهُ يصعب تعيين الزمن الذي جرى فيهِ هذا الامر » (٤

وهذا البرهان يزيد قوّةً اذا اعتبرنا القرن الثاني للمسيح أَا زادت النصرانية امتدادًا ونفوذًا وكانت وقتئذٍ تدمر اخذت ترتقي في معارج الفلاح فتستلفت اليها الابصار. كيف لا وكان يمكن النصارى ان يعيشوا في تلك المدينة بمعزل عن الاضطهادات التي لحقت بهم في غيرها من البلاد يقضون فروض ديانتهم بكلّ حرّية ودون نزاع. فلا غرو اذًا ان يكونوا تواردوا الى تدمر ونما فيها عددهم

---

١) راجع *Edessenische Inschrift.* Z D M G, 1882, p. 152

٢) راجع الجريدة الاسيويَّة J. A., 1883¹, p. 251 وريكندورف ZDMG, 1888, p. 409

٣) راجع ايضاً Battifol : *Revue Biblique*, 1895, p. 155 و P. de Smedt : *Revue des Quest. Hist.* 1891, p. 406 . وقد تشهد التواريخ القديمة والمجامع والكتابات المكتشفة جديدًا مثل كتابة القديس أَبِرْكيوس على امتداد النصرانيَّة في القرون الاولى في جميع بلاد آسية الصغرى (راجع ايضاً P. Allard : *Le Christ. et l'Empire romain*, 1897 p. 70 و V. n° 74 و Revue des deux Mondes, 15 Juil. 1896, p. 386 (٤

امَّا في القرن الثالث فكان منار الدين النصرانيّ عاليًا في تدمر وانتشرت اضواؤهُ بنوعٍ عجيب لمَّا صار الامر الى غاليانوس قيصر وامر على رأس الملإ ان يُترَك النصارى وشأنهم في اقاليم مملكتهِ. فشرعت من ثمَّ كنائس المشرق تنمي وتفلح وتظهر في وجه الشمس (١

ولمَّا اخذ أذينة الثاني بعنان المُلك وباشر باستنقاذ دولة الرومان من ايدي اعدائهم كانت الاضطهادات قد انتهت في بلاد الشأم ولم يبلبل هذه السلامة الَّا سوء تصرُّف بعض الخوارج نحو النصارى كما ذكرنا ذلك سابقًا (ص ٣١ الحاشية الثانية). قال المسيو ألارْد مؤرّخ الاضطهادات الشهير (٢ : « انَّ الشعوب المذعنة لسلطة زينب لم تزل في بحابح السلام والنجاح بينما كانت دماء المسيحيين مُهراقة في رومة وجوارها ». فوفر عددهم في تدمر على عهد ملكتهم العزيزة

وبناء على كلّ ما تقدّم نقول ان سلطانة تدمر التي قد استقصت مطالعة الاسفار الكريمة وارتاحت الى النظر بالشريعة الموسويَّة لم تكن لتنظر الى شريعة اعلى واكمل منها دون ان تعمل في نفسها تعاليمها السامية فتفضِّل هذه على تلك. فان عقلها لم يكن اقلّ طمعًا في معرفة الحقّ من قلبها في مُلك العالَم كلِّهِ. الَّا انَّ الاحوال حالت موقتًا دون وصولها الى ذلك العلم الخطير فاغترّت بمذهب رجُل ذي مُداجاة غواها واضلّها عن سواء السبيل. واليك تفصيل ذلك على وجه الاختصار

١٦

كان في بلاط زينب رجلٌ سُمَيساطيّ الاصل (٣ فاق بشهرتهِ وبُعد صيتهِ سائر العلماء الذين قرَّبتهم عندها زُلفى اسمهُ بولس. وكان هذا عالمًا نحريرًا ثاقب العقل يباري الملكة معرفةً وعلمًا وعظمةً وطَوْلًا في مالهِ. فلمَّا توسَّم القوم فيهِ صفاتِ حميدة وخصالًا فريدة نادوا بهِ بطريركًا على كرسي انطاكية سنة ٢٦٠ ايَّام كان متولّيًا على المشرق أذينة مع زوجتهِ. وكان الناس قاطبةً بين نصارى وعَبَدة اوثان يعظِّمون هذا الاسقف ويحسبونهُ رجلًا

---

١) راجع Allard : *Hist. des Persécut.* III, p., 179

٢) راجع الكتاب المذكور (p. 205)

٣) راجع اوسابيوس تاريخ الكنيسة الكتاب السابع عدد ٣٠,٧ – كان البطرك السادس عشر على انطاكية

جريء المُقدم ذا عزمٍ ودهاء ويتهيَّبون سطوتهُ وبأسهُ . امَّا بولس فما عتَّم ان ظهرت اسرار قلبهِ المكنونة فاشهر مقاصدهُ وجاهر برغائبهِ السيئة فافرغ في تنفيذها كنانة جهدهِ ولم يأنف ان يتَّخذ السلطة المقدَّسة التي خُوِّلها كوسيلة لتحقيق مطامعهِ فجعل يُنفق هذه الاموال التي كسبها بالنفاق والتعدّيات في لبس ثيابٍ فاخرة ذات اثمانٍ فاحشة . فكنت تراهُ يتزيَّن بالحُلى والطرائف شأن الملوك او بالحري شأن ربَّاتِ الحجال ويحذو حذو العالميّين قولًا وفعلًا حتى صار عثرةً للنصارى ولعبدة الاوثان انفسهم . قيل انَّهُ امر الناس في كنيستهِ ان يصفقوا لهُ استحسانًا كما يصفَّق للممثّلين في المراسح . وكان خطابهُ ابدًا ثناء على نفسهِ او تنديدًا بآباء الكنيسة الاقدمين ولم يقف عند هذا الحدّ من السفاهة بل اتى يوم عيد الفصح بنساء فرتَّلنَ في بيعة الله التراتيل العالميَّة وانشدنَ الاناشيد يمدحنهُ ويعظّمنهُ

وقد بلغت هذه القبائح الى اقصى غايتها لمَّا استفزَّ الشيطان قلبَ بولس السميساطي وسوَّل لهُ ان يتَّخذ في خدمتهِ فتاةً من اهل الريبة اسكنها في دارهِ ولعلَّهُ استند في ذلك الى بعض الحجج الواهنة التي من شأنها التمويه على الجمهور (١ . وبعد حين ادَّت بهِ قِحَتُهُ الى ان يستصحب ابنتين في عنفوان الشباب كانتا تصحبانهِ حيثما ذهب (٢

فهذا الذئب الخاطف الذي دخل الحظيرة جعل على مثالهِ الاكليريكيين الذين تحت سلطتهِ فاقتصُّوا معالمهُ وتخلَّقوا باخلاقهِ وافسدوا الخراف التي وُكل امرُها اليهم . وما كنَّا لنصدّق خبر هذه الفظائع لو لم يثبتها مجمع انطاكية في رسالتهِ . وربَّما سمع فادي العالم تدخل مثل هذه الشكوك في كنيستهِ الطاهرة ليمحص بذلك اولياءهُ القديسين

هذا ولم يألُ بولس جهدًا في ان ينال رضى زينب . وقد ارتأى بعض المؤرّخين اعتمادًا على قول ثيودوريتوس ان الغيرة حملت اسقف انطاكية على اتيان ما أتى ابتغاء ان يكسب الملكة الى الدين المسيحي . لكنَّ هذا الزعم واهنٌ لا صحَّة لهُ لانَّ قلبًا فاسدًا ملطَّخًا بالرذائل والادناس لا يستطيع ان يضطرم بالايمان والغيرة على مجد الله . فالأولى القول انَّ هذا المبتدع

---

١) كان بعض الاكليريكيين في قرون الكنيسة الاولى استحلُّوا السكنى مع البنات العذارى (agapètes) بزعمهن انَّهم يعيشون معهنَّ عيشةً صالحةً طاهرة ويستندون بذلك الى عادة الرُّسل الاوَلين الذين كانت تقوم بخدمتهم بعض الاخوات (راجع رسالة القديس بولس الاولى الى اهل قورنتية ٩ : ٥) . فردَّ القديس كبريانوس على مزاعم هؤلاء وبيَّن الاخطار الناجمة عنها . وكذلك سفَّه القديس ايرونيموس هذا الرأي في رسالتهِ ٢٢ الى استوخيوم ٢) شَمْباني ص ١٣٧

لم يبتغِ سوى الحظوة عند زينب لكي يظلّ في كرسيهِ ثابتاً ويتمكّن من شهواتهِ الذميمة لا يقمع كبرهُ قامع ولا يردع اهواءه رادع

وعليهِ لم تكن سيرتهُ الّا تملّقاً ومخادعةً ومخاتلةً للملكة التي لم تكُ بعدُ عرفت ديانةَ المسيح حقَّ معرفتها فكان يبيح لها في امر الدين والآداب ما تستبيح ويخفف عن عاتقها ما تستثقلهُ بل كان يُعجَب بزينب ايَّ إعجاب ويتلو تلوهـا ما استطاع ويُظهِر ما تُظهِر من العظمة والتجبر والسلطة والدهاء . وفي صورة الحرم الذي رشقَتهُ بهِ الآباء يقال « انهُ كان على شاكلتها ما غلبتهُ الّا بعفّتها » وما فتئَ يتملّق سيّدتهُ ويخاتلها حتى قلّدتهُ وظيفة الدُّوكنار (ducenarius)(١ التي كانت آثر عندهُ من الاسقفية(٢

فهذا المثل الرديُّ الصادر عن اسقف نافذ الكلمة في سوريّة جمعاء هاج لهُ الشرق وماج . وكان من قبل في سنة ٢٦٤ قد التأم في انطاكية مجمعٌ لتزييف تعليم بولس المذكور(٣ فحُرم لاول مرّة . وملخص هذا التعليم « انَّ المسيح رجلٌ صِرفٌ لم يكن لهُ من وجود قبل ظهورهِ في عالمنا . وانهُ من المحال ان يتجسّد الكلمة الذي لا يساوي الله في الجوهر . امّا الاقانيم الثلثة فليست هي الّا صفـات في الحقّ سبحانهُ وتعالى . وقد زيّن اللهُ عزّ وجل المسيحَ بنعمٍ فريدة خصَّهُ بها دون غيرهِ فكان الحبَل بهِ فائق الطبيعـة صنعهُ الروح القدس في احشاء عذراء وفي تلك السـاعة حلَّ فيهِ كلمة الله . فلا حرَج اذن لو دعونا المسيح الهيًّا او الهًا نظرًا لفضائلهِ السامية التي تقرّبهُ من الله تعالى (٤ » . فلم تلبث

١) الدوكنار (ducenarius او ducentarius) كان بادئ بدء ضابطاً يجبي الخراج ويحكم في الدعاوي الطفيفـة وقد دعي بهذا الاسم إمّا لانَّ راتبهُ كان ٢٠٠,٠٠٠ ستسترس (اي اكثر من ٣٥,٠٠٠ فرنك) او لانهُ كان يجبي لبيت المال اثنين عن كل مائتين . ولكن في الجيل الرابع والخامس ترأس الدوكنـار على مجلس شورى القوّاد العسكريين او على ادارة الشؤون اعني مجلس الولاة ويبين انهُ نال ذلك منذ اواخر الجيل الثالث (راجع Notit. Dignit., p. 823). وبناءً عليهِ فكان لبولس في ادارة شؤون سورية منصب من المناصب الاولى بعد رتبة القنصل

٢) تاريخ اوسابيوس ٧ : ٣٠

٣) وممّن حضر هذا المجمع فرميليانوس القيصري والقديس غريغوريوس العجائبي واخوهُ اثنودوروس وهيلانوس الطرسوسي وهيماناوس الاورشليمي والشمّاس اوسابيوس الذي سيم بعد مدةٍ مطرانًا على اللاذقية

٤) راجع كتاب الهرطقات للقديس ابيفانيوس ٧٥ : ١ — ٣ ورسالة المجمع في تاريخ اوسابيوس ٧ : ٣٠ وكتاب الهرطقات للقديس اوغسطينوس ٥٤ الخ

هذه الاراجيف ان انتشرت وسرى شرّها في العقول فاجتمع حينئذٍ الاساقفة من بلاد بُنطس وقفادوقية وفلسطين فوجدوا بعد الفحص انَّ تعاليم المبتدع لا تختلف عن تعاليم ارتاماس او ارتامون (١ الذي كان قد حُكم عليهِ قبلًا. فحرموها باتفاق الكلمة

فلمَّا كُشف القنـاع عن سيّئ آراء بولس سُقِط في يدهِ وتظاهر بالتواضع والقبول للرأي السديد والايمان الصحيح ووَعدَ ان يغيّر خطتهُ ويؤمن ايمانًا مستقيمًا ولكن عقيب خمس سنوات رجع الى ضلالهِ وشرّ اعمالهِ او بالاحرى ما زال طول المدَّة ينهج منهاجهُ الاوَّل تاركًا مواعيدهُ دون ان يصلح سيرتهُ او يصحّح تعليمهُ. فهرع الى انطاكية ثانون اسقفًا سنة ٢٦٩ لمقاومة هـذا « اللصّ الذي اتلف خراف المسيح إتلافًا » فانتصب في وسط الجماعة الكاهن ملخيون القديس وفنَّد حجج المبتدع الواهنة واخمهُ امام المجمع بتَعْداد ما عُزي اليهِ من الاضاليل والآثام فعُزل بولس عن كرسيهِ واقيم مقامهُ دُمنوس وكان ابن ديمتريانوس اسقف انطاكية سابقًا. ورغبةً في اشهار هذا الحكم وانفاذهِ بعث المجمع رسالة الى ديونيسيوس اسقف رومة ومكسيموس اسقف اسكندريّة والى عامَّة الاساقفة والكهنة والشمامسة والكنيسة الكاثوليكية المنبثَّة في كل الاقطار (٢

امَّا زينب فما انكرت على الاساقفة صنعهم ولا سلبتهم حرّيتهم بل تركتهم وشأنهم يحكمون على حميمها وجليسها (٣ واكتفت بان لا تنفذ حكمهم بالقوَّة الجبريَّة. غير ان بولس ابى ان يجحد كفرهُ ويتخلَّى عن الاوقاف الكنسية اتكالًا منهُ على حزبهِ العظيم في انطاكية وحسن التفات زينب اليهِ فيما سلَف. فلم يبرح هو وانصارهُ في دار الاسقفية متمتعًا بالاوقاف والاموال الى يوم تغلَّب اورليانوس على زينب وقهرها في انطاكية سنة ٢٧٢. فمثل اوانئذٍ دُمنوس امام القيصر وطلب اليهِ كمالكٍ شرعيّ ان تُردَّ لهُ المساكن التي كان احتبسها جورًا وظلمًا ذلك الهرطوقيّ المحروم فاجاب اورليانوس الى سؤلهِ قائلًا: « انَّ الوقف

---

١) راجع اوسابيوس الفصل المذكور. كان ارتامون هذا علم في رومة تعاليم كاذبة ينفي فيها الوهيَّة السيد المسيح . وكان اوانئذٍ حبر الاحبار القديس زفرينوس

٢) راجع اوسابيوس ٧ : ٢٨ – ٣٠ والقديس ايرونيموس الرسالة ٨٤ وفي الرجال العظام ٧١ والقديس اثناسيوس في المجامع – (مَنْسي المجامع المقدّسة المجمع الجديد I) على تاريخ سنة ٢٦٩ Tillemont : *Mémoires*, IV, art. 4 و Bolland. : Oct. t. XII, p. 507-509

٣) اوسابيوس الموضع المذكور

الواقع عليهِ الخلاف انَّما هو مُلك المشتركين مع اساقفة ايطالية واسقف رومة (١

على هذا المنوال سقط بولس رغماً عن الآمال التي وطَّدها على زينب غير انَّهُ كان قد زرع في المشرق جراثيم الشيعة الآريوسية والنسطوريَّة اللَّتين مال اليهما وعلَّمهما وقد ترك اشياعاً متعصّبين لتعاليمهِ فدُعوا بولسيّين سُمَيْساطيين(٢

بعد سرد هذه الاخبار نرى انهُ لامرٌ جدير بالانذهال كيف تركت زينب جليسها بولس واحبَّ الناس اليها يُحرَم ويُحكم عليهِ بالعزل والعقاب دون ان تحاول اضطهاد المسيحيين او معارضتهم في دينهم. وقد اثنى القديس اثناسيوس ثناءً جميلاً عليها لسبب غير هذا وهو عدم تعصُّبها لديانتها الاسرائيلية (على زعمهِ) قال: « ان زينب وان يهوديَّة لم تهب ابناء ملَّتها الكنائس لتكون لهم مجامع او محافل » (٣

١٧

يظهر ممَّا تقدَّم انَّ زينب لم تفتقر ليَحْسُن تنصُّرها الَّا الى مرشد امينٍ حسن السيرة ومستقيم المعتقَد. ولكن قد فات حين ارشادٍ. فانهُ بينما كانت ملكة تدمر تتفرَّغ للامور الدينيّة وتشتغل بالمسائل العلمية جعل قياصرة رومة يتجهَّزون لمقاتلة من تملَّكت على جميع اقاليمهم الشرقيّة واقامت في صحارى الشام دولةً مستقلَّة تُري قوةً وفخرًا بسلطة الرومان وقديم عزّهم. كيف لا وقد اوشكت زينب ان تنجز ما عزمت عليهِ منذ ابتداء امرها اي الاستيلاء على رومة وترقية ابنائها على سرير ملوكها

الَّا ان الله تعالى جلَّت حكمتهُ لم يسمح بتحقيق آمالها فتغيَّرت الاحوال في المغرب وملك على الرومان قيصرٌ جديد ذو بأس ومراس جرى بينهُ وبين صاحبة ترجمتنا

---

١) اوسابيوس ٧ : ١٩,٣٠ . قال شمپاني « ان هذا الرجل الوثني اوصلهُ تمييز عقلهِ الى حلّ مسائل شتَّى في الامانة المستقيمة (المحلّ المذكور وجه ١٤٠) – فانظر كيف اورليانوس يذكر اسقف رومة على حدةٍ واما اساقفة ايطالية فيذكرهم سويَّةً دون تخصيص احدٍ »

٢) راجع اوسابيوس في المحل المذكور. والقسم الثالث من اخبار مخائيل كليكاس – وقد اجمع المؤرخون على ان بولس هو اول من حرَّف القوانين الرسولية – طالع مقالات دي مجيستري الفصل الثاني (مِين)

٣) راجع رسالة القديس اثناسيوس

امور خطيرة تشيب لهـا الرؤوس واصطلت حرب عوان افضت الى كسرة زينب وأسرها فهذا ما بقي علينا ذكرهُ

كان اسم القيصر المذكور لوكيوس اوريليانس بويع لهُ بالملك بعد موت كلوديوس الثاني سنة ٢٧٠ . وكان رجلًا خامل الاصل من احدى قرى بلاد پانونية فنشأ في آداب الحرب يبيت بالمراكز العسكرية ويقطع اوقات الفراغ بملاهي القنص وترويض الجسد . ولما تبوأ تخت السلطنـة اظهر في كل معاملاتهِ شدَّة جنديّ شظف وخشونة رجل شرس فظّ الطباع . قال ڤوپيسكوس في ترجمـة اوريليانوس (ف ٢١) يصف دُرْبته في السياسة : « كان اوريليانوس طبيباً ماهرًا الّا انَّهُ كان خرقًا في عملهِ يُقسي قلبـهُ على المريض » . وعلاوةً على ذلك كان اوريليانس وثنيا متعصّباً لا يفرق قطّ بين تعزيز دينهِ ورفعـة دولة الرومان . فلما فرغ من امر الخوارج في رومة لم يعتم ان جدَّد اضطهاد النصارى . ثمّ وجّه افكارهُ الى الاقاليم الشرقيـة فصمّم على ان يسلب زينب صولجان ملكها

وكانت زينب وابناؤها في تدمر تتزيقوس في غالية يقرُّون للقيصر الجديد بحق الرئاسة او بالاحرى يعتبرونهُ كبعض شركائهم في تدبير الممالك الرومانية كما تشهد على ذلك بعض النقود . بيد ان اوريليانس لم يكن ليرضى بادنى اشتراك في الملك فجاهر في مجلس الشيوخ انهُ زاحفٌ بجيوشهِ الى الاقطار الشرقية . وقبـل خروجهِ من رومة تقدّم الى احد قوّادهِ يقال لهُ پروبوس (١ ان يتوجّه توًّا الى مصر فيطرد عنها التدمريين (في اوائل السنة ٢٧١) (٢ . واما هو فأجّل تتميم قصده ريثما يردّ غزوات القوط على ضفّـة الطونة (الدانوب)

وكانت زينب في تلك الغضون تسوس رعيتها العظيمة بالامن والسلام غير مكترثة لمقاصد الرومان . بيد ان التدمريين الوثنيين قد اصبحت قلوبهم في قلق واضطراب كأنّهم ينتظرون تقلّبات الدهر وتصاريفهُ . لان جماعة منهم حجُّوا قبل ذلك بسنة الى أفقة من اعمال لبنان كي يستفتوا إلهة الجبليّين عمَّا يصير اليهِ امرهم . وكان من عادة هولاء المشركين اذا ما استشاروا الزُّهرة ان يرموا في النبع المختصّ بها عطايا من ذهب وفضّة وأنسجاً ثمينة .

---

١) تولى پروبوس هذا الملكَ على الرومان بعد اوريليانوس وتاكيتوس

٢) Vopisc. : *Probus*, 9

وكانوا يزعمون انّ الهدايا ترسب في غور المياه اذا اصابت لدى الزهرة قبولًا وتطفو فوقها اذا رذلتها الزهرة ورفضتها . فيُخبر انّ ما قدّمهُ التدمريُّون للإلهة وجدوهُ بعد سنةٍ لمّا عادوا الى افقــة طائفاً على وجه الماء . فاستنتجوا من ذلك ان الدوائر لا تَنْشب ان تدور على مدينتهم (١ . ولا خفاء ان زينب لم تكن لتحفل بهذه الخرافات . الّا انها لم تقدر ان تسكّن خواطر الوثنيين من رعاياها

وفي واقع الامر انّ الحرب ما لبثت ان قامت على ساق . قال زوزيموس في سيرة اوريليانس (١ : ٤٤ — ٥٠) : « انّ السبب الذي تعلّل بهِ اوريليانس لمحاربة زينب انّما كانت غارةً شنّتها على بلاد بيثينيَة » . وقد مرّ بنــا ان زينب لم تكد تستوي على عرش المشرق حتى سعت في الاستيلاء على هذا الاقليم (راجع ص ٤٥) الّا ان غاليانس قيصر كشف نيّاتها وعاكسها معاكسةً صدّتها عن الظفر بالمرغوب وان كانت وقتئذٍ متغلّبةً على الرومان لكنّ سلطانة تدمر لم تبرح تطمع في فتح تلك البلاد لخطارة موقعها في آسية الصغرى

فلمّا منحها الله اكتاف المصريين ولاحظت ان اوريليانس لم ينكر عليها حقّ نصرتها زاد قلبها حرصاً في التملك على بيثينية فامرت جيوشها ان يستغيروا عليها ففعلوا وقهروا اهلها واستَقْرَوا البلاد حتى اقصى انحائهــا فبلغوا خلقيدونة بازاء بيزانتيوم (اي القسطنطينية) وضربوا عليها الحصار . الّا ان سكّان هذا الاقليم كانوا يكرهون التدمريين فلم يلبثوا الّا يسيرًا حتى خرجوا عليهم ودعوا اوريليانس لنصرتهم لكنّ القيصر لم يتهيأ لهُ ان يجاوب للحال الى طلبتهم اذ لم يكن قد انتهى من امر البرابرة . وفي تلك الاثناء مات وَهْبلات في تدمر (٢ فاجلست زينب ابنيها تيمَ الله وخَيران على منصّة القياصرة ومحت صورة اوريليانس عن نقود التدمريين

فلمّا علم اوريليانس جرأة هذه المرأة تفرّغ من حرب القوط باسرع مدّة وبادر الى بيزانتيوم فعبر مضيق البُسفور وحمى التدمريين في بيثينيَة (في اواخر السنة ٢٧١ او اوائل

---

١) V : n° 95, Zozim. : I, 58

٢) راجع W. : p. 605 . اعلم ان اخبار الاقدمين والدلائل التاريخية المستنتجة حديثاً من الكتابات والنقود تختلف بعض الاختلاف في رواية هذه الوقائع . فاخذنا عن كل هذه المصادر ما رايناه اقرب الى الصواب . واماً وَهْبلات الذي ملك على الارمن في آخر عهد زينب فمن المتبادر انهُ لم يكن من ابناء ملكة تدمر

السنة التالية) فطردهم عنها ثمَّ واصل فتوحاته فتغلّب على غلاطيـة وقفادوقية حتى بلغ مدينة انقرة وكان يريد حصارها . الّا ان سكّانها تهيّبوا سطوته وفتحوا لهُ ابواب مدينتهم طالبين منهُ الامان . وكل ذلك جرى في مدّة وشيكة حتى ان زينب لم يسَعْها ان ترسل جيوشها الى مقاومة الرومان قبل توغّلهم في السورية الشمالية

وقبل ذلك بيسير كان زبدا قائد زينب قد هرع الى مصر ليمدّ الى فيروس واليها من قِبَل ملكة تدمر يدَ المساعدة ويشدّ أزرهُ بقَهْر العساكر الرومانية التي وجّهها اوريليانس تحت امر پروبس . فنشب قتال شديد بين الفريقين اوشكت فيهِ جيوش زبدا ان تستظهر على الاعداء . الّا ان پروبس استمال جماعةً من المصريين فآزروهُ على التدمريين وكسروهم كسرةً موئلةً . فولوا مدبرين تاركين مصر الى الابد (٢٧١)

فلمّا وصل زبدا مع بقايا عسكره الى تدمر كانت زينب تتأهّب لمحاربة اوريليانس وقد ضمّت اليها اطرافها من جميع انحاء ممالكها وجعلتها تحت امر زبدا وزبّاي ثم قسمتها ثلاثة اقسام وجّهتها كلها في وجه الرومان اوّلهـا بطريق حلب والثاني بطريق حمص والثالث بطريق القريتَيْن . وصارت هي تتقدمهم ممتطية جوادهـا لابسةً بزّة الحرب شاكّة السلاح وعلى رأسها البيضة

وكان اوريليانس قد انتهى من فتح قفادوقية وجعـل يحاصر مدينة طِيانَة واهلُها من آمن رعايا زينب واثبتهم في خدمتها . فدافعوا عن اوطانهم مدافعـة الابطال . ولولا خيانة رجل يدعى هِراكليمون لَما تغلّب عليهم القيصر ولعلّهُ كان تباطأ الى ان تفجأهُ زينب بغتةً . الّا ان الله لم يسمح بمثل ذلك ففتح الرومان مدينة طيانة ثم توغّلوا في جبال توروس يحاربون من ينازعهم ويقهرون من ناواهم ويفتحون مدينـة بعد مدينةٍ حتى قربوا من انطاكية (١

وكانت هذه المدينة في ذلك الزمان من ابهى مدن الشرق يتخلّلها نهر العاصي وتحدق

---

١) قال بعض المؤرخين ان المكان الذي احتلهُ اسمهُ عمّ (الخ .. Immos او Imma) وهو على طريق حلب . الّا ان في الامر نظرًا . فلما كان هذا الاسم ورد على صورة تشبه صورة اسم حمص فالاحرى عندنا ان هؤلاء المؤرخين ارادوا بذلك الاشارة الى حمص التي جرت فيهـا حرب عوان بعد القتال الذي التحم في جوار انطاكية . (راجع Mommsen V, p. 440; ZDMG, *Nöldeke* : 1885, p. 339)

بها الرياض والحدائق والغابات . وكان شابور لمَّا اغار عليها طمس محاسنَها لكنها لم تلبث ان تنتعش بعد خمولها على عهد امراء تدمر فدان لهم اهلها دون الرومان . الَّا ان حسن التفات زينب الى المبتدع بولس السُّمَيساطيّ أثار فيهم البغض للتدمريين وكانوا منذ شمّرت الحرب عن ساقها يتمنّون للرومان النصرة على عساكر زينب

١٨

فلمَّا قربت ملكة تدمر من انطاكية ورأت قدوم اوريليانس اليها امرت قوّادها ان يناشبوهُ القتال وهي لا تشكّ في غلبتها عليهِ . ففي الوقيعة الاولى هجم فرسان تدمر على الكتائب الرومانية وشتّتوا شملهم . الَّا ان التدمريين كانت تنوء بهم عدَّتُهم لثقلها وكانت خيولهم ابطأ جريًا من جياد فرسان اوريليانس الذين جمعهم في الجزائر . وكان القيصر رجلًا ذا حِيل ومكايد فامر مقاتلَهُ ان يستطردوا للعدوّ فولّوا مُدبرين . وللحال تبعهم زبّاي بفرسانهِ لا يفكّر انهُ عاجز عن ادراكهم . فاغتنم اوريليانس هذه الفرصة والّب كتائبهُ وكبس أرجلة التدمريين وهزمهم . فلمَّا رأى زبّاي ما وقع باصحابهِ علم خطأهُ فندم على فعلهِ ولكن فات حين ندم فانّ فرسانهُ كانوا قد ابتعدوا عن المعركة ابتعادًا مفرطًا واصبحت مطاياهم رازحةً ففجئ الرومانُ التدمريين ثانيةً وكسروهم كسرةً شنيعةً

فجمعت زينب شتات عسكرها والتجأت الى انطاكية مسرعةً . وعند دخول التدمريين تخوّف زبّاي من ثورةٍ يهيجها الانطاكيّون اذا وقفوا على حقيقة الامر فاعلن كذبًا انهُ اسر القيصر وانهُ سيحملهُ الى تدمر مكبَّلًا . وفي نفس هذا اليوم خرجت زينب بجيوشها من انطاكية زاحفة الى حمص . وتملّك اوريليانس في الغد على انطاكية واعطى الاهالي الامان (١

وبينما كانت زينب تستوفض الى حمص وهي تنادي فرسان العرب لمساعدتها (٢ شدّ

---

١) زوزيموس ١ : ٥١ وڤوبيسكوس ٢٥ . و Addison : II p. 268 و Chesney II p. 427 واخبر قوم من المؤرخين ان التدمريين لم يغادروا حالًا جوار انطاكية بل كمنوا في غابة تُدعى دَفْنه جنوبي المدينة وان الرومان تبعوهم اليها فطردوهم منها بعد قتال عنيف (راجع Mommsen : V, p. 439)

٢) قد قدمنا (ص ٤٥) ان زينب كانت قد استصغرت شان بعض قبائل العرب . فلذا لم ينتدب اليها في بدء الحرب سوى القبائل الثائهة في جهات الجزيرة والعراق . فلما رأى الآخرون

في اثرها القيصر وفتح في طريقهِ عدَّة مدن على ضفَّة نهر العاصي منهـا أفامية ولاريسة (قلعة سيجر) والرستن. فلمَّا بلغ الى جوار حمص وجد عساكر زينب صفوفًا كثيفة متحفزين لقتال ثانٍ وهم نحو ٧٠,٠٠٠ نفر من الفرسان والرَّجالة والقوَّاسة. وكانت الساحة التي اختارتها ملكة تدمر للقتال مفازةً عريضة شمالي المدينة تناسب لحركات جندهـا لاسيَّما الفرسان وهم معظم جيشها. واماَّ جنود اوريليانس فكان عددهم اقلّ من التدمريين الَّا انهم رجال مدرَّبون على فنون الحرب يقتحمون المخاطر غير مبالين بالهلكة (١

فتقدَّمت زينب على راس خيلها وأغرتهم على فرسان اوريليانس فوثبوا عليهم بشدَّة عظيمة فولَّى الرومان مُدبرين وتبعهم اصحـاب زينب يُثخنون فيهم الجراح. فلمَّا راى اوريليانس ما نزل بقومهِ ضاقت الارض في اعينه بما رحبت وجعل يتضرَّع الى آلهتهِ لاسيَّما الى صنم حمص وهو عبارة عن حجارة سوداء مختصَّة بعبادة الشمس. وفي غضون ذلك تقدَّمت زينب الى جنودها بان يحدقوا بالاعداء لئلاَّ يفلت منهم احد. الَّا ان الحركة التي امرت بها لم تنجح لانَّ فرسان اوريليانس كانوا تناءوا عن مأزق الحرب عنـد فرارهم فلم يتهيَّأ لجيوش زينب ان يحصروهم في حلقتهم. لا بل أفضى الامر الى اعتزال فرسان تدمر عن الرجَّالة فكان ذلك سبب هزيمة التدمريين. فانَّ اوريليانس بادر الى تغيير نقطة القتال فهجم على ارجلة زينب ومزَّقهم كلَّ ممزَّق. وعند ذلك كرَّ زبَّاي راجعًا لينقذ اصحابهُ من المكروه الَّا ان الحظَّ اسعد الرومان فاجتمعوا صفوفًا لاصقةً وحملوا على مقانب التدمريين فجرى حينئذٍ بين الطرفين من القتـل الذريع والذبح الهائل ما افضى الى تتمَّة نصرة الرومان. فنال زينبَ الذُّعرُ والهلع لمَّا شاهدت السهل مفروشًا بجثث انصارها فتركت حمص على جناح السرعة قاصدةً تدمر وهي مصمِّمة ان تدافع عن حاضرتها مدافعـة الابطال (٢٧٢) وتبذل دونها النفس والنفيس (٢

ان نير الرومان يكون اثقـل عليهم من نير زينب لبَّوا الى طلبها فاخذوا يناوشون الرومان افرادًا ودون نظام كعادة اهل الوبر في كل اين وآن

١) قال ڤوپيسكوس (ف٢٢): انهُ وُجد في جملة العساكر الرومانية فئات من اهل دلماطيَة وميسية وپانونية ورتية والعراق والشام وفلسطين وفينيقية وغيرهم ولم يكن لهم من الاسلحة سوى عصيّ وهراوى ضخمة (دبابيس) ». والظاهر ان المؤرخ يريد باهل الشام وفلسطين وفينيقية جماعة من الخوارج واللصوص الذين انتهزوا الفرصة للسلب والغنمة فتحزَّبوا للرومان دون التدمريين

٢) ڤوپيسكوس : پروبس ٩

وبينما كانت تجتاب البراري دخل اوريليانس مدينة حمص فاستقبلهُ الاهالي استقبالاً فائقًا كأنهم تبرَّموا بتدبير تلك السلطانة التي لم تألُ جهدها لترخي خِناقهم وتقطع رِبْقة الرومان عن اعناقهم

وجرى في سائر انحاء سورية ما جرى في حمص. فان پروبس بعد ان اختطف البلاد المصرية لم يلبث ان استولى ايضًا على سائر املاك التدمريين دون صعوبة ولا مقاومة من قِبَل الاهلين. وقبض اوريليانس على جميع الاموال والنفائس والاسلحة التي تركها اعداؤه في حمص وبالخصوص على تلك العَجَلة البهيّة التي اعدَّتها زينب لاولادها يوم يتسنَّى لها ان تدخل بهم ظافرةً رومة عاصمة الدنيا. ثم صار يقدّم فروض عبادتهِ الباطلة الى الحجارة السوداء وينسب اليها ظفرهُ ويشكرها على صنيعها ثم وعد ببناء هيكل عظيم للشمس عند رجوعهِ الى عاصمتهِ. واجمعَ المؤرّخون القولَ بان القيصر فَتَن بهذه المَظاهر الوثنية قلوب من كانوا عبَدةً للاصنام بين اهل حمص(١

ومع ذلك لم يُطِل اوريليانس الاقامة في تلك المدينة. فكاني بهِ لم يحسب نفسهُ في الهناء والرومانَ في الأمن والسلام وآلهتَهُ في رضًى ما دامت زينب متحصّنة في حاضرتها. فازدحف الى تدمر يريد فتحها باسرع مدّةً. قال المؤرخ مومسن الشهير: « ان السفر الى تدمر كان للرومان اصعب من مقاتلة زينب » يعني بهِ ان اجتياز جيوش القيصر بادية الشام في فصلٍ تلظَّى وَهَجُ حرارتهِ بين قبائل العرب المتلصِّصة كان من الامور التي تقتضي بأسًا وثبوت جنان. فلما وصلوا بازاء تدمر وقد اضنكهم التعب ولفحتهم الشمس فتفرّسوا في قلاع تلك المدينة الحصينة واسوارها وأبراجها نالهم برؤيتها الدهش والحيرة فعرفوا انَّها اعزّ من الأبلق العَقوق. وكانت زينب بعد هزيمتها زادت المدينة حصانةً فنصبت المجانيق فوق الاسوار وهيأت جميع الآلات المعدَّة لرمي المَزاريق ورشق السهام النارية النفطية. فباشر الرومان حصار تدمر بالغين بالجدّ. واول ما سعوا وراءهُ تقويض الاسوار بالحفر وفتح اللغوم من تحتها الّا ان ارض هذه الانحاء كانت سهلة التفتُّت فاوشك الصنّاع ان يهلكوا تحت ردمها وذهبت مساعيهم ادراج الرياح

وفي اثناء ذلك لم ينفك التدمريون يقذفون الاحجار ويرشقون السهام وانواع الرجوم

---

١) ڤوپيسكوس: (اوريليانس) ٢٥ وزوزيموس: ١. وغيرهما

فيتلفون الاعداء دون ان يلحقهم منهم ادنى مضرّة. وعلى ذلك كتب اوريليانس الى مجلس الشيوخ: «... لعلّ البعض يستضحكون مني على محاربتي لامرأةٍ ... فاعلموا ان زينب اذا قاتلت كانت أرجلَ من الرجال ...» (١. فلمّا راى القيصر ان لا فائدة من الاحتياط بالمدينة وان جنوده يهلكون باطلًا واحدًا بعد آخر فكّر في وجه استعطاف خاطر زينب ودعائها الى تسليم حاضرتها له. فبعث اليها برسالة قال فيها ما تعريبهُ:

« من القيصر اوريليانس ملك العالَم الروماني وسلطان المشرق الى زينب واصحابها سلامٌ:

« قد وجب عليكِ ان تفعلي من تلقاء نفسكِ ما ادعوكِ اليهِ بهذه الرسالة. وهو ان تخضعي للرومان وتستسلمي لي. فعلى هذا الشرط ليس الّا تنالين سلامتكِ وتستحقّين عفوكِ. فان فعلتِ يسمح لكِ مجمع الشيوخ الاعلى ان تعيشي انتِ وعيالكِ في مدينة يعينونها لكِ. فسلّمي اذن لبيت مالنا كلّ ما لديكِ من الجواهر والذهب والفضّة والنسج والخيول والجمال. وانا اتعهّد لكِ انّي سأحفظ للتدمريين جميع حقوقهم »

فاجابت زينب: « من زينب سلطانة المشرق الى اوريليانس اغسطوس:

« انّ ما التمستَهُ مني بكتابكَ لم يتجاسر احدٌ قبلك ان يطلبه مني برسالةٍ. أفنسيتَ ان الغلبة بالشجاعة لا بتسويد الصفحات. انك تريد ان استسلم لك. أفتجهل ان كليوپترة قد آثرت الموت على حياة شأنها عار الدَّبرة (٢. فها اني منتظرةٌ عضد الفرس والارمن والعرب لفلّ شباتك وكسر شوكتك. وان كان لصوص الشام قد تغلّبوا عليك وهم منفردون فماذا يكون حالُك اذا اجتمعتُ بحلفائي على مقاتلتك. فلا شكّ انك تذلُّ وتخنع لي فتُجرّد نفسكَ عن كبريائها التي حملتك على طلب المحال كأنّك مظفّر منصور في كل اين وآن » (٣

---

١) ڤوپيسكوس: ٢٧

٢) لعلّ شهرة هذه الرسالة وما ذُكِرَ فيها عن موت كليوپترة هو الذي حمل العرب وغيرهم من المؤرخين على قولهم بان زينب في آخر امرها ابتلعت سمًّا كالملكة التي كانت تفتخر بنسبتها اليها

٣) ڤوپيسكوس: اوريليانس ٢٦ و ٢٧

فلمّا قرأ اوريليانس جواب زينب على ألوكتهِ أرغى وأزبد ثمَّ اقسم امام قوّادهِ أن لا بُدَ لي من قمع طُغيان هذه المرأة. فامر بمواصلة الحصار واكثر من تحميس جنودهِ حتى اغراهم ببذل نفسهم وحبَّب اليهم الموت ولا الرجوع على الاعقاب. الّا ان اصحاب زينب لم يبالوا بمساعيهم وباتوا وراء حصونهم المتينـة آمنين وكثيرًا ما كانوا يشرفون على ابراجهم الشاهقة ليستفزُّوا الاعداء تارةً بالشتائم وتارةً بقذف الرجوم. وممّا زادهم ثقةً بنفسهم وثباتًا انَّ القيصر عينَـهُ أُصيب بسهم عاثر كاد يجرّعهُ حَسَوات المنون. فطأمن ذلك من نخوة الرومان واورثهم الفشل. فحاول اوريليانس ثانيةً التلطُّف بسلطانة تدمر فكتب اليها كما فعل سابقًا فلم يُجدِ ذلك نفعًا لأنَّ زينب ردَّت على طلبتهِ قائلةً: لا تسوّم نفسك المُحال فاني لم اخسر من جيشي الّا انفارًا قليلين وهم جميعهم من ملّتك (١

على انَّ الله جلّ جلالهُ كان قد قـدَّر على تدمر ان تسقط يومًا. فبينما كان الرومان يموتون خوًى وعطشًا في تلك البراري القاحلة والرمال الماحلة اذ حان ميقات نصرتهم على التدمريين. كان اوريليانس قد وجّه الى جميع المدن المجاورة لتدمر حتى الى انحـاء لبنان رسلًا يطلبون لهُ المؤونة والميَر اللازمة. فاجاب السوريُّون الى دعاء الرسل وكان حقّهم ان يبادروا الى معاضدة مَنْ حلّت ايديها عليهم. فنقلوا الى عساكر اوريليانس اسباب العيش الوفيرة (٢ . فصار ذلك علّةً لانتعاش شجـاعة الرومان وانحطاط قوى التدمريين. ولسوء حظّ زينب أهملها حلفاؤها من الفرس والارمن والعرب فلم يمدُّوا اليها يد المساعدة. ولعلَّ سبب ذلك ما قالهُ بعض المؤرّخين انَّ القيصر ردَّ قسمًا من هؤلاء الشعوب واستمال القسم الآخر بالالطاف لاسيما قوّاسة الفرس لقلّة مهارة الرومان في استخـدام القسيّ. فلمّا رأت زينب ذلك علمت ان قد فات كلُّ امل فاجتمعت بقوّادهـا تشاورهم لآخر مرّة. ثمّ تسلّلت في بعض الليالي من عاصمتهـا فامتطت ناقةً واتّجهت نحو الفرات لتستنجد ملك

---

١) راجع Mai : *Script. Vet. nov. coll.*, II. وقد مرّ انّ بعض الكتائب الرومانية كانت في عُهدة ملوك تدمر (ص : ٥٣) فتحزّب قسم منها لزينب مدة حروبها مع اوريليانس

٢) ڤوپيسكوس: الموضع المذكور ٣١

الفرس (١ ولم تبرح تركض راحلتها مدّة ليلةٍ ونهار حتى انتهت الى جوار مكانٍ يُعرف اليوم بالدير وهو على ضفّة الفرات قريب من زليبية . وكانت قد ترجّلت عن مطيّتها اذ لاحظت وراءها هبوةً سطعت فحدّقت اليها واذا بفرسانٍ ليسوا من اصحابها يتناهبون الارضَ وراءها فعرفت انهم من الاعداء . فهتفت بصاحب زورقٍ كان هناك تأمرهُ بان يعبر بها النهر . فما اقتربت السفينة وحأتْ فيها رجل الملكة حتى ادركها الفرسان وانقضُّوا عليها وجذبوها الى البرّ ظافرين بغنيمتهم . ثم ركّبوها ناقتها وقفلوا مسرعين الى تدمر وامتثلوا بين ايدي القيصر يقدّمون لهُ سلطانة المشرق مأسورةً

فلمّا رآها اوريليانس اقبل اليها يصيح بصوت عالٍ : صرتِ في قبضتنا يا زينب أفلستِ انتِ التي ادّتْ بكِ الجسارة الى ان تستصغري شأن قيصرٍ روماني » . فاجابت : « نعم اني اقرُّ لك الآن بكونك قيصرًا وقد تغلّبتَ عليَّ . واما غاليانس وأورِيولس وغيرهما فلستُ انظمهم قطّ في سلك القياصرة . وانما بارَتْني ڤيكتورية في السلطنة والعزّ فلولا بُعد الاوطان لعرضتُ عليها ان تشاركني في المُلك » . فأثرت حذاقة زينب في قلب ذلك الجندي الفظّ الطباع وارضاهُ هذا الجواب الملقّق . فمنحها الامان رغمًا عن جَلَبة قوّادهِ وجنودهِ الذين كانوا يلحّون عليهِ طالبين قتلها . لكن زينب المسكينة بقيت في ايدي عدوّها مأسورة . فاضمحلّت سلطتها وكُسفت شمس مجدها وذهبت من يدها اموالها وتحوّل كل ذلك الى حسرة وتأسف ومرارة

وعندئذٍ فشل التدمريّون وقنطوا من امرهم ففتحوا للقيصر ابواب مدينتهم الجليلة يلتمسون منهُ الامان (في بدء السنة ٢٧٣)

---

١) ولعلَّ زينب خرجت من عاصمتها باحدى القنى او السراديب العديدة التي تُرى بقاياها الى اليوم تحت اسوار تدمر وقلاعها . (راجع برنُقيل : ص ٩٩ وتجسبي ٢ : ٤٢٩) . وعلى ذلك رواية مؤرخي العرب التي اوردناها في افتتاح مقالتنا . واما ما قالهُ جِبسون المؤرخ الانكليزي (في تاريخٍ لهُ في هبوط المُلك الروماني) بان زيب بردت همّتُها عند ظهور الخطر وانها التجأت الى الفرار حينما اجتمعت جيوش پروبس بعساكر اوريليانس فكلُّ ذلك اقوال لا سَنَد لها الّا في مخيّلة المؤلّف

١٩

وبعد ان اعطى اوريليانس اهل تدمر الامان قبض على جميع كنوز زينب واستصفى اموالها. ثم رجع الى حمص يقود الاسرى للبحث عن امرهم وابراز حكمهِ فيهم. قال زوزيموس: « فاستحضر القيصر سلطانة تدمر واشياعَها فلماً مثلت بين يديهِ جعلت تعتذر اليهِ وتتنصَّل وتدافع عن نفسها مدافعة الداهية حتى قرَّفت كثيرين من اصحابها بانهم اضلُّوها بسوء نصائحهم وورَّطوها في الغرور. وكان من جملة الذين وشتْ بهم عند القيصر لنجينوس . . . . فحكم عليهِ القيصر من ساعتهِ بالموت بعد ان مثَّل بهِ. فكابد لنجينوس العقاب بشجاعة وصبر جميل حتى انَّهُ عند وفاتهِ كان يعزّي اصدقاءَه واقاربَهُ. وكذلك نُكِّل بكل من تجرَّمت زينب عليهم » (١

هذا ما زعم زوزيموس. على ان في الامر لنظراً. لعمري كيف يقبل العقل انّ زينب التي طالما جالست ذلك العالم الشهير تستنصحهُ وتشاورهُ في اغمض اسرار سياستها تغيَّرت عمَّا كانت عليهِ من المودَّة والاكرام حتى تجنّت عليه ورمتهُ في لَهَوات الموت. وقد روى ڤوپيسكوس المؤرّخ انّ لنجينوس قُتل مع جميع الذين حملوا التدمريين على محاربة الرومان. فان سلَّمنا بصحة هذا القول لا نرى من حاجةٍ ان ننسب الى زينب عدم الوفاء لأنصارها وحميم اصدقائها ونحن نعرف ما طُبع عليهِ اوريليانس من خُشنة الطباع وفظاظة الاخلاق وقلَّة اكتراثهِ للعلم والادب. ولا جرم انَّ ما زادهُ حنقاً على مؤلف كتاب الايغال الشهير ظنّهُ بانَّهُ هو الذي املى على زينب الرسالة الاولى التي اوردناها آنفاً (٢

---

١) زوزيموس ١ . وكذلك سويداس يروي مثل رواية زوزيموس

٢) قد وهم اوريليانس في ظنّهِ هذا لانهُ من المقرَّر (ڤوپيسكوس ٢٧) ان محرّر تلك الرسالة انما هو نيكوماخوس (راجع ص ٤٥) لا لُنجينوس. وقد ترجمها الى اليونانيَّة بعد ان صنَّفتها زينب باللغة الآرامية. وفي هذا دليل آخر على ان زينب لم تَسْعَ بجليسها. وزعم المسيو رَيت (ص١٦٢) ان اوريليانس امر بقتل لنجينوس لانهُ اتَّخذ اسم كاسيوس قاتل يوليوس قيصر او اسم اڤيديوس كاسيوس الذي خرج سنة ١٧٢ على القيصر مركوس اوريليوس فعدَّ ذلك اهانةً لشأن القياصرة. الَّا اننا لا نرى في ذلك برهاناً كافياً

واما زينب فلم يحكم عليها اوريليانس بالموت فرارًا من ملامة تلحقهُ اذا امر بقتل امرأةٍ او بالاحرى بغيةً منهُ ان يجلو سلطانة المشرق الى رومة ليعانيها الرومان ويزيد بذلك حفلة دخولهِ للعاصمة رونقًا وبهجةً (١ . وعليهِ فانهُ كتب الى مجمع الشيوخ يعلمهم بابقائهِ على زينب جزاء لما ابدت سابقًا من الخدم للدولة الرومانية ومدافعتها عن الاقطار الشرقية قاطبةً (٢ . فغادرت زينب مع عيالها تلك البلاد العزيزة التي ارتقت باعتنائها الى اوج العمران والتقدُّم وسارت بصحبة الاسرى التدمريين تتعقَّب القيصر الروماني الى عاصمتهِ بطريق آسية الصغرى

وكأني بتدمر قد قُضي عليها ان تسقط بسقوط سلطانتها . فان اوريليانس كان قد عبر البسفور حيث أغرق عدَّة من اصحاب زينب وشرع يحارب بعض البرابرة في انحاء ثراقية اذ اتاهُ نبأ خروج التدمريين . وذلك انَّ القيصر عند مغادرتهِ للاقاليم الشرقية كان قد ولَّى على تدمر احد ضبَّاطهِ يقال لهُ سوداريون وعيَّن لهُ ٦٠٠ جندي لحراسة المدينة . فاستقلَّ التدمريُّون عددَهم واستثقلوا وطأتهم وحاولوا الاستبداد . ثم ارسلوا بعد ذلك بعدَّة وجيزة الى مركلينوس والي الشام يعرضون عليهِ المُلك . فتظاهر مركلينوس بالاجابة الى دعائهم لكنَّهُ وجَّه سرًّا الى القيصر رسولًا يخبرهُ بدسائس التدمريين . ثمَّ لم يزل يماطلهم بالوعد حتى أيسوا من قبولهِ فاختاروا لهم ملكًا آخر من قرابة زينب اسمهُ انطيوخوس (٣ . على ان هذا الرجل كان صفرًا من الصفات الملكية والقوَّة السياسية فاظهر من الغفلة والخرق ما ادَّى برعيَّتهِ الى التهلكة . وفي اثناء ذلك بلغ اوريليانس خبر عصيان التدمريين فترك البرابرة وشأنهم وقفل راجعًا الى الشام على جناح السرعة وكاد ينتهي الى سوريَّة قبل ان يشعر التدمريُّون بقدومهِ . فزحف الى مدينتهم وفجئَ انطيوخوسَ واصحابهُ وافتتح تدمر عنوةً (٢٧٣) واعمل في اهلها السيف ايَّامًا متوالية حتى كلَّت ايدي جنودهِ من القتل والذبح . ثم امر فنُعثرت الابنية وقوِّضت الهياكل ودُكَّت الاسوار وهُدمت القلاع . فاصبحت تلك المدينة البهيَّة قاعًا صفصفًا ضرب عليها الخراب اطنابهُ وانعق الدهرُ فيها غرابهُ

وبعد ان تشفَّى اوريليانس من غيظهِ واثأر من اعدائهِ تقدَّم الى جيوشهِ بالرجوع

---

١) قوبيسكوس ٢) تريبيليوس *Trig. Tyr.* 29

٣) راجع قوبيسكوس (سيرة اوريليانس ٣١) وزوزيموس ١ : ٦٠ و ٦١ و W : n° 2629 و Mommsen : V. p. 441

الى رومة للقيام بعيد انتصاره (١ . الّا انّ الاحوال اضطرّتهُ قبل ذلك الى مقاومة تتريقوس والخوارج في غالية . فلمّا فرغ من قمعهم عاد الى ايطالية مظفّرًا منصورًا . فاحتُفل بدخولهِ الى رومة احتفالًا لم يسبقهُ من مثيل . قال المؤرّخون انّهُ كان يتقدّم موكبهُ عشرون فيلًا وعدّة وحوش داجنة من بلاد مصر وفلسطين تتعقّبها اثارٌ وزرافات وايائل ثم يليها ١٦٠٠ مُصارع وعددٌ غفير ممّن اتوا الى القيصر من بلاد شتّى ليهنئوهُ بالظفر كالجرمان والعرب والفرس حتى اهل الهند والصين (٢ . وكانت تجري وراء تلك الجوقة اربع عجلات سلطانية الاولى عجلة أُذينة زوج زينب وهي مزيّنة بالذهب والجواهر . والثانية العجلة التي اهداها هرمز بن شابور الى القيصر تذكارًا لفتحهِ تدمر . والثالثة عجلة زينب التي اعدّتها لتدخل فوقها عاصمة الرومان . لكن ملكة تدمر المسكينة لم تكن على عجلتها بل كانت تسير وراء العجلة الرابعة التي تقلّ القيصر الظافر . وبصحبتها احد ابنائها (وقيل كلاهما) وبعض رعاياها وتتريقوس الخارجي . وكانت ابصار الجموع الكثيفة المحتشدة لرؤية هذا التطواف المذهل متفرّسةً في ملكة تدمر دون غيرها . وهي تجري وسط الموكب راسفةً ومزيّنة بكل الاحجار الكريمة التي كانت تتحلّى بها فيما مضى من حياتها وفي عنقها طَوق من الذهب المُصمَت وفي يديها اسوار ثمينة . فناءت هذه الحليّ بزينب وأثقلتها حتى انّها اضطُرّت مرارًا الى ان تتوقّف عن المسير وتستروح الهواء . ولمّا لمح احد الحضور وكان عِلجًا فارسيًا هزّالًا يُضحك الناس انّها كادت تسقط فيُغشى عليها ساعدها في حَمل الحلقة الذهبية التي طُوّقت بها (٣

ولمّا تمّ هذا الاحتفال الفاخر عيّن اوريليانس لملكة تدمر مصيفًا جميلًا في تيبور بالقرب من مصيف ادريانس . وعُرف هذا المكان بمصيف زينب في القرون التابعة . ولكن هيهات ان تكون هذه المنازه لترضي السلطانة المعزولة وهي تستذكر الاوطان وتلك العاصمة التي افرغت جلّ مجهودها لتكسوها فخرًا وتلك الجموع والجحافل التي طالما قادتها الى

١) وروى بعض المؤرّخين الاقدمين ان المصريين خرجوا ايضًا في تلك الاثناء وملّكوا عليهم فيرموس صديق زينب فبادر اوريليانس الى قهرهم قبل رجوعه الى اوربة . ففجئ الخوارج بغتةً واباد شملهم وقبض على ملكهم ومثّل بهِ (راجع زوزيموس وفوبيسكوس وغيرهما و Mommsen : V. p. 441)

٢) (راجع رينو J. A. 1863¹, p. 388 . وكان في جملة العرب بعض الاسارى من بني سليح الذين تحزّبوا لزينب حين محاربتها للرومان ٣) راجع شامپاني ص ٢-١٣١

الحروب والغزوات . فليت شعري كيف انخسف نور ذلك النجم الساطع . وانطفأ ضوء ذلك الكوكب اللامع . الذي اشرق على المشرق وبهر حتى اهل المغرب ؟ وحياة الحقّ لجاز لنا ان نهتف مع اشعيا النبي (٤٧ : ٥) : « اقعدي صامتةً وادخلي في الظلام يا بنت الكلدانيين فانكِ لا تُدعَين سيّدة الممالك من بعدُ »

فاعتزلت زينب مع عائلتها في مصيف تيبور وعاشت فيهِ دهرًا طويلًا منقطعة الى تهذيب اولادها (١ . قال قدماء المؤرّخين انها زوّجت بناتها باعيانٍ من الرومان (٢ وانّ ذرّيتها استمرّت حتى القرن الرابع للمسيح (٣ . واضاف بعضهم ان القديس زينوبيوس اسقف مدينة فلورنسة ومعاصر القديس امبروسيوس كان من نسلها ايضًا (٤

وهنا مسألة : هل ماتت زينب مسيحية ؟ نجيب انّ ذلك امر دافع عن صحّتهِ الكردينال بارونيوس المؤرّخ الكنسي الشهير واثبتهُ بادلّة (٥ لا يسمح لنا ضيق المكان ان نسردها هنا . وجلّ ما نحبّ ان يلاحظهُ القارئ اللبيب ان قولنا السابق عن نصرانية ملكة تدمر يؤيد هذا الرأي تأييدًا قويًا

٢٠

واما تدمر فعبث بها الدهر كسلطانتها العزيزة . فبعد ان هدمها اوريليانس بقيت الى عهد ديوكليتيانس قرية صغيرة (φρούριον) استخدمها الرومان لردّ غزوات اهل الوبر (٦ .

---

١) زعم بعض الرواة (منهم دوبل ص : ١٧٣) ان زينب حِرصًا في البقاء والاطمئنان تظاهرت بالاجابة الى التماس بعض الشيوخ الخوارج الذين عرضوا عليها ان يملكوها على الرومان بعد عزلهم لاوريليانس وانّها وشت بهم الى القيصر فاذاقهم مرّ النكال . على اننا كنّا نودّ ان يسند هؤلاء الكَتَبة زعمهم الى رواية مؤرّخ قديم لنعرف ما فيها من الصحّة

٢) راجع تريبيليوس *Trig. Tyr.* 20 وزوناراس ١٢ : ٢٧ . واما ابنا زينب فقال بعضهم انّها ماتا في اثناء الاحتفال بنصرة اوريليانس . وروى تريبيليوس بعكس ذلك انّ تيم الله ترعرع وصار بعدئذٍ خطيبًا لاتينيًا مصقعًا . والله اعلم

٣) راجع تريبيليوس (*Trig. Tyr.*, 20) والقديس ايرونيموس في تاريخ مشاهير الرجال واوتروبيوس (Brev. IX, 13)

٤) راجع بارونيوس التواريخ الكنسيّة سنة ٢٧٤ . وتلّمون : تاريخ القياصرة ٣ : ٥٢٢ والقديس بروسپر في مجموع مين ٥١ : ٥٧١

٥) (راجع Terzi : *Siria Sacra* (1695) : p. 129)

٦) (راجع Steph. Byzan. s. v. وريكندورف Z D M G : 1888, p. 391

ويُخبر عن ديوكليتيانس قيصر انهُ سعى وراء ترميمها فابتنى فيها بعض الابنيـة (١ . وتتبَّع ايضاً هناك النصارى واضطهدهم كما فعل في سائر الاقاليم . في نفس السنة التي بها انتصر قسطنطين على العالم الوثني (٣١١) فاز باكليل الاستشهاد كل من القديسات لبيبة واختها لاونيدة واوتروبية وهي ابنة اثنتي عشرة سنةً من اشرف عيال تدمر (٢

وفي ايام تاودوسيوس الصغير (٤٠٨ — ٤٥٠) عُيِّن لحراسة تدمر فرقة من الجند . وكانت قبل ذلك بقليل قد عُدَّت مقاطعةً تابعة لولاية فينيقية لبنان التي كان مركزها مدينة حمص . وذكر لوكيان في الشرق المسيحيّ بعض الاساقفة الذين ساسوا كنيسة تدمر منهم مارينوس الذي حضر المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ ويوحنا الاوَّل (٤٥٧) ويوحنـا الثـاني الذي اشتهر في عهد انستاس القيصر (٤٩١ — ٥١٨) . ونفي على عهد خلفهِ يوسطينوس لمدافعتهِ عن المجمع الخلقيدوني وقولهِ بطبيعتين في المسيح (سنة ٥١٨)

ولمَّا تبوَّأ يوسطينيانس تخت السلطنة سنة ٥٢٧ عهد الى بعض وزرائهِ ان يُعيد تدمر الى ما كانت عليهِ من العزّ والبهاء . وامدَّهُ لذلك بالاموال الطائلة . فباشر الوزير هـذا العمل الجليل بنشاط عظيم وجدَّد بناء الاخربة وشيَّد ابنية اخرى وجمع مياه الانهار والجداول التي كانت تغور في الرمال باطلًا واحدق المدينـة باسوار لم يطمس الدهرُ آثارَها حتى يومنا (٣

وكان ملوك غسَّان قد احتلُّوا بقعة تدمر فاختار بعضهم تلك المدينة كمنزل جعل فيهِ سكناهُ (٤ . ولم تزل تدمر على تلك الحال الى ان فتحها المسلمون سنة ٦٣٤ . قال

---

١) (راجع Mordtmann : *Neue Beiträge z. K. Palmyr.*, p. 80)

٢) لوكيان المشرق المسيحي ٢ : ٨٤٥ وترزي الكتاب المذكور ص : ١٢٩ والبولنديُّون في اعمال القديسة فِبْرونية . ومن غريب الامر ان مؤلفين كالسيو مرغان (ص : ٨١ في كتابهِ الآنف الذكر) وموروني Moroni *art.* Palmira يستنتجون من خبر استشهاد تلك القديسات الثـلاث ان النصرانيَّة لم تظهر في تدمر الَّا في القرن الرابع

٣) (راجع Procop. : *Ædific.* II, 11 و Lebeau : *Hist. du Bas-Emp.*, IX, p. 45 وملالا ٢ : ١٥٢ وثيوفان : ٢٦٧ . وعلى راي نولديك (ZDMG : 1885, p. 336) اذا حفرت ارض تدمر ربما وُجدت فيها من كتابات عديدة تنبئنا بما نجهلهُ من اخبار ذلك الزمان

٤) راجع نولديك : *Die Gassânischen Fürsten*, p. 16,47 و Duchesne : *Eglises séparées*, p. 338-40

اليعقوبي في تاريخهِ (طبعة ليدن ٢ : ١٥١) : « مرَّ خالد (بن وليد) بتدمر فتحصَّن اهلُها فاحاط بهم ففتحوا لهُ وصالحهم ثم مضى الى حوران ». ولم تزل تدمر منذ الفتح الاسلامي تنتقل من دولة الى اخرى حتى ايَّامنا هذه (١

وفي السنة ١٠٨٩ طرأ عليها زَلزال هائل نسف عدَّة ابنية نسفًا. وقد مرَّ بنا ان الرباني بنيامين التودلي زار تدمر في القرن الثاني عشر فوجد فيها مستعمرة يهودية كبيرة. وتبعهُ اليها كثير من مشاهير العلماء والزوَّار لاسيما من العرب نخصّ منهم بالذكر المتنبّي واليعقوبيّ والمُقدّسي وياقوت وابن بطوطة وابو الفداء. وكان املنا ان نجد في تآليفهم ما يزيدنا معرفة باحوال تدمر وتواريخها فما وقفنا فيها على غير اقاصيص وحكايات لا طائل تحتها

ولمَّا استولى السلطان سليم الاوَّل على بلاد الشام في اوائل القرن السادس عشر للمسيح لم يرَ في تدمر الَّا بعض الاكواخ بجانب الاخربة العتيقة

وفي اواسط القرن السابع عشر زارها اولًا احد ادباء فرنسة اسمهُ كرنجر (Granger) وقد اعتنى منذ اشهر العلَّامة الاب شابو بنشر اخبار سفرهِ (٢ . ثم وليهُ بعض تجَّار من الانكليز القاطنين في حلب (سنة ١٦٧٨) فهجم عليهم اهل البادية وردُّوهم خائبين. لكنَّهم ثبتوا على عزمهم فرحلوا ثانيةً الى تدمر وتمكَّنوا من مشاهدة آثارها المذهلة. وعند رجوعهم كتب احدهم يدعى هاليفكس قصَّة رحلتهم وطبعها في لندن (سنة ١٦٩٥). ولمَّا شكَّ العلماء بصدق هذه الرواية يمَّم تدمر السَّيدان دَوكِنس ووُود واقاما فيها مدَّة طويلة فصوّرا اخربتها تصويرًا بديعًا اخذنا من تآليفهما بعض الصور. لكنَّ دوكنس ووُود لم يستنسخا سوى ١٣ كتابةً تدمريَّة. فلم يكن من ثمَّ في مثل هذا العدد الوجيز كفاية لتوسيع نطاق تواريخ تدمر. وبعد رحلتهم بقرن كامل عزم المركيز دي ڤوگويه على معاينة اخربتها فتجشَّم هذا السفر البعيد سنة ١٨٦٤ وجمع في عاصمة زينب كتابات عديدة الَّف بها ذلك المجموع الرفيع القدر الذي اصبح نقطة علمية يرجع اليها كلّ ما جرى بعدئذٍ من الابحاث الخطيرة والاكتشافات الاثيرة وهو خليق باعتبار كل من لهُ بعض المام في اخبار المشرق وقديم عزّهِ وعنهُ اقتبسنا كثيرًا من الفوائد التي ذكرناها. لكنَّ « ارض تدمر ستبعث

(١ من اراد تفاصيل تاريخ تدمر ايَّام الاسلام عليهِ بمراجعة كتاب المسيو غريم (Grimme) عنوانهُ : Palmyræ sive Tadmur urbis fata quæ fuerint temp. Muslem., Münster, 1886

(٢ راجع J. A. 1897², p. 337

لنا الوفا من الكتابات والآثار اذا ما حُفرت بنظام ومواصلة السعي (١ ». هذا ما قالهُ العلاَّمة كلرمون غانو فكفى بهِ اشارة ونصيحة لاهل الغيرة والنشاط ولمحبي العلم والوطن

خاتمة

وفي الختام نلتمس من قرّائنا الكرام . ان يعودوا معنا بالنظر الى ما كانت عليهِ تدمر في عهد امرائها العظام . من العزّ والعمران . وما صارت اليهِ بعدئذٍ من الذلّ والهوان . فترى ما سبب هذا التقهقر الوشيك وانحطاط هـذه المفاخر . فانَّ في ذلك لعبرة لكل ذوي البصائر . فنقول :

ان سقوط تدمر لا يُعلّل بعلَّة اخرى غير طمع اهلها لاسيَّما ملكتهم زينب بالسيادة ورفعة الشأن وقد قيل من رفع نفسهُ عن حدّهِ وضعهُ الناس دون قدرهِ . فكان الله عزَّ وجلَّ خصّ زينب بالمنصب الرفيع بين الرومان والفرس لحراسة حدود المملكتين فاحرزت بذلك قصب السبق على اعظم ملكات المسكونة وكما قال بوسويت « انتشر صيتها في الخافقين لكونها قرنت العفَّة بالجمال والعلم بالسطوة » فاحتسبت نفسها قديرة على جمع ملك المشرق والمغرب وطمعت في ما جلب الدمار على ملكها وادخل عاصمتها في خبر كان . وكذلك اهل تدمر انما كانوا تجارًا شأنهم السفر الى الاقطار الشاسعة لاستجلاب خيرات الهند والعرب ونَقلها الى ممالك الرومان فاعمى بصرَهم نجاحُهم وتقدُّمهم في سبل العمران فتكبَّروا وتجبَّروا ونزعوا عنهم لباس السفر ليجلسوا على منصَّة الملك ويضبطوا عنان السياسة والتدبير . فقلب لهم الدهر ظهر المجن بعد زمن يسير . وأطفأ الله سراجهم المنير . ولمَّا خرجوا على رومة لم يجدوا لهم من مستجار او مجير . فباد شرفهم الخطير . وهبط اسمهم الرفيع الاثير . وما البقاء الَّا للواحد الصمد القدير . لهُ العزّ والسلطان فيرفع الحقير . ويكسر من زَهْو الكبير . سبحانهُ وتعالى فهو ربُّنا ونعم النصير

---

(١) (J. A. 1892' p. 123) . ومنذ ثلاث سنين قد ارتحل الى تدمر المهندس برتون احد تلامذة المدرسة التي اقامتها الحكومة الفرنسيَّة في رومة للبحث عن الابنية القديمة عموماً . وكان غرض هذا الشاب العالم التفتيش عن جميع اخربة تدمر حتى يتمكن من رسم بناء هيكل الشمس وتصويرهِ بدقَّة . ففي اثناء شغلهِ عثر على بعض كتابات جديدة سلَّمها للاب شابو المارّ الذكر فقرأها ونشر نشرها في السنة الجارية تباعاً في المجلَّة الاسيويَّة . ومثل المسيو برتون اكتشف الدكتوران موريتس مناظر المكتبة الحديويَّة والدكتور الاب لويس موسيل نزيل كليتنا سابقًا كتابات تدمرية عديدة طُبعت في المانية وڤيانة

فهرست الموادّ

اقوال العرب في الزبّاء ٣ – ٥
تقليد السوريين في اعمال زينب ٦،٥ و ٢٦
موارد تاريخ زينب وتدمر ٦ – ٩
اسم زينب الآرامي واليوناني ٩
اصلها وانتسابها الى اعظم ملكات الشرق ٩ – ١٠
ملخص تاريخ تدمر من اول امرها الى مُلك زينب: في ان باني تدمر هو الملك سليمان ١١ – ١٣
تجارة التدمريين وتقدُّمهم في العمران ١٣ – ٢٣
تاريخ امراء تدمر الى ملك زينب ٢٣ – ٣٨
ملخص سيرة اذينة الثاني زوج زينب: ابتداء مُلكهِ ومحاربتهُ لشابور والخوارج ٢٤ – ٣٥
اواخر حياتهِ وقتلهُ ٣٥ – ٤٨
جدول لبيان نسب عائلة اذينة وزينب ٣٨
ابتداء ملك زينب ووصف محامدها ٣٨ – ٤١
اعتناؤها بتهذيب اولادها ٤١ – ٤٢
امتداد ممالكها ٤٢ – ٤٤
مقاتلتها لغاليانس قيصر ٤٤ – ٤٥
وصف احوال تدمر في ايام كلوديوس قيصر ٤٥ – ٤٦
فتح زينب لمصر ٤٦ – ٤٧
صفات زينب السياسية ٤٨ – ٥١
وصف احوال تدمر الدينية والعلمية والادبية: مجالسة زينب لعلماء الشرق لاسيما لنجينوس ٥١ – ٥٤
عدد اليهود في تدمر ٥٤
انتشار النصرانية في المشرق وخصوصاً في تدمر ٥٦ – ٥٩
ديانة زينب وعلائقها مع بولس السميساطي ٥٩ – ٦١
اضاليل بولس المذكور وحرمه ٦١ – ٦٣
وصف اوريليانس قيصر ٦٣ – ٦٤
ابتداء محاربته لزينب ٦٥
كسرة التدمريين في مصر ٦٦
التحام القتال بين زينب والرومان في انطاكية ٦٧
كسرة عساكر زينب في انطاكية ٦٨
قتال ثانٍ في جوار حمص وكسرة ثانية ٦٩
محاصرة القيصر لتدمر ٧٠
مراسلة اوريليانس لزينب ٧٠
مواصلة الحصار وهرب زينب من عاصمتها وسقوطها في ايدي العدو ٧١ – ٧٢
فتح اوريليانس لتدمر ٧٢
معاملة اوريليانس للاسرى التدمريين ٧٣
اياب اوريليانس وخروج التدمريين على الرومان وفتح الرومان لتدمر مرَّة ثانية ٧٤
جلاء زينب واقامتها في تيبور وموتها مسيحيَّة ٧٤ – ٧٦
ملخص تاريخ تدمر الى الفتح الاسلامي ٧٦ – ٧٨
لُمَع من اخبار زوار تدمر من القرون المتوسطة الى يومنا ٧٨ – ٧٩

فهرست الصور

صورة زينب عن تمثال ١٨
مدخل قصر اذينة وزينب ٢٥
جدول لبعض الخطوط الشرقية ٢٨
صورة عُمُد الرواق الاعظم في تدمر من جهتها الداخلية ٣٣
صورة قوس الانتصار ٣٦
صورة العمد من جهة الغرب ٤٠
صورة زينب وابنها وهبلات عن مسكوكات قديمة ٤٥
صورة هيكل الشمس في تدمر ٤٩
خارطة لبيان المسالك التجارية في القرن الاول ٨٠

obeikandl.com